شرابنل

علی هاشم بغداد

اسم الكتاب: **شرانبل على هامش بغداد**

العنوان باللغة الأصلية:

ELISABETH HOREM
SHRAPNELS, En marge de Bagdad
BERNARD CAMPICHE EDITEUR- 2006

تأليف: **إليزابيث هوريم**

ترجمه عن الفرنسية: **سعيد فرحان**

عدد الصفحات: **176**

القياس: **14.5 ❖ 21.5**

1000/2013م -1434هـ

© جميع الحقوق محفوظة

طبع هذا الكتاب بموجب عقد مع الناشر السويسري للطبعة العربية

Copyright ninawa

سورية - دمشق - ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963 +

هاتف: 2326985 11 963 +

E-mail: ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
facebook.darninawa

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة وتصميم الغلاف

القسم الفني - دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب، بأية وسيلة كانت دون إذن خطي مسبق من الناشر

اليزابيت هوريم

شرابنل

على هامش بغداد

ترجمه عن الفرنسية

سعيد فرحان

طُبع هذا الكتاب بمساعدة
منظمة الثقافة السويسرية بروهلفسيا

Ce livre est publié avec l'aide
de la Fondation Suisse pour la culture Pro Helvetia

شرابنل

شاهد على مرور بغداد في زمن أسود

هذا الكتاب يتناول الفترة الواقعة بين صيف عام 2003 وصيف عام 2004. سنة واحدة من حياة كاتبة ألقى بها الدهر في أتون مدينة بغداد، لتصاحب زوجها الذي يعمل في السلك الدبلوماسي. لقد أرادت الروائية السويسرية اليزابيت هوريم (Elisabeth Horem) لكتابها هذا الذي ظهر عام 2005 عن دار نشر (Campiche Editeur) السويسرية، أن يرصد حياتها خلال عام من الزمن لا أكثر، رغم أنها أقامت في البلد لأكثر من عامين. وهو ليس كتابا روائيا بالمعنى الحرفي للكلمة ولا بالكتاب الوثائقي، إنما محاولة للقبض على تفاصيل الزمن العراقي. نص مكتوب بلغة محايدة، تصف العالم الخارجي من نافذة السيارة أو من خلال عدسة آلة التصوير، دون أن تلقي بمشاعرها الشخصية على مسار الأحداث ولا تعلق عليها إلا فيما ندر، وتكتفي بالتساؤل والوصف. هذا الموقف المحايد له ما يبرره، فهي زوجة دبلوماسي يمثل بلاده في بغداد وبلاده هي سويسرا. والكاتبة التي تحاول أن تفلت من هذا الإطار، تتسلح بوعيها ككاتبة روائية ولكنها تبقى أسيرة لهذه الموقف المحايد، مما يعطي للكتاب نكهة مراقب صامت، فالقارئ لا يتعرف على اسمها ولا يجد في الكتاب صوت ضمير المتكلم. «الأنا» غائبة وتستعيض الكاتبة

عنها بالضمير الغائب: «هي» حين تتحدث عن نفسها، و«هو» حين تذكر زوجها.

العنوان الفرعي للكتاب هو «على هامش بغداد» وكأن الكاتبة تصرّ على استحالة التعرف على هذه المدينة والدخول الفعلي في دوامتها. إنها تتلقى أصداء الحياة في حديقة دارها وتحاول أن تنقلها بأمانة في كتاب يتأرجح بين اليوميات المختارة بعناية والجانب الروائي التسجيلي الذي يشكل عمود العمل. فالروائية التي تجيد فن القص ببراعة، أصبحت الآن بطل روايتها، سجينة في هذا الدور. فهي تصف يومها في البيت، تنتظر عودة زوجها. صدى الحياة الخارجية يدخل عبر المذياع، عبر أصوات الانفجارات التي تهزّ النوافذ المغلقة، عبر الخادمة فريدة وزوجها آرام وعبر رجال الحماية والحراسة الذين ارتبطوا معها برابطة مصير مشترك غائم الملامح. هذه الشخصيات تعيش، داخل الكتاب، في حالة حصار، حيث الخروج يعني أحيانا التنزه في غابة الموت. ولكن طبيعة مهنة زوجها لا تتيح لها العزلة التامة، فهي ترافقه في الحفلات الرسمية والدعوات والزيارات. تحضر حفلات موسيقية وتزور آثار بابل وطاق كسرى أو تذهب للعشاء عند عائلة عراقية مرفهة، وهي في لحظات الخروج تحمل آلة التصوير معها لتسجل عبر عدستها المشاهد التي تغفل العين عن تسجيلها. وحتى هذا الخروج الذي يزيده اطمئنانا حضور رجال الحماية الذين لا يفارقونها، يظل محكوما بحالة الحصار، فالخطر يمكن توقعه في كل لحظة في مدينة صارت ساحة لتجربة عنف مريعة.

الخيط الروائي سرعان ما يتضح: امرأة غربية حرة، تختار اللحاق بزوجها الذي تحب ولكن الكتابة تلاحقها وتصبح متنفسا للخوف والرعب حتى أن نظرتها للأشياء سرعان ما ترتدي ثوب العنف المحيط بها، فهي حين تزور أكاديمية الشرطة وترى ساحة الرمي تتصورها كساحة للتصفيات الجماعية. حتى أحلامها تكتسي حلة عنف كابوسي،

رغم إنها أخضعت نفسها لهذا التمرين القاسي، أن ترى العالم الخارجي بحيادية تامة وتنقله بالحيادية ذاتها. وهو إنجاز لا يجيده إلا الروائي الماهر. فصول الكتاب تشبه في تركيبها قصائد شعرية تؤججها ضربة البيت الأخير. وكصدى لهذه الطبيعة الشعرية تصبح اللغة مختصرة بشكل كبير حتى كأنها تصير تقطيرية في الكثير من الفصول وهو أمر يزيد من صعوبة الترجمة.

يبدأ الكتاب في زاوية مخصصة للمسافرين إلى العراق في مطار عمان. «هي» تنتظر الطائرة المروحية الصغيرة التي ستقلها لرؤية زوجها «هو» الذي افترقت عنه منذ خمسة أشهر عشية الحرب، وهاهي تحلق في سماء المدينة التي يخفي اسمها سحرا تاريخيا: بغداد. وينتهي الكتاب ببغداد في مشهد أمل مؤثر مع البستاني الذي أصطحب ولديه معه: (لكي يتعلما المهنة، هذا ما قاله لها في يوم سابق: «على أية حال لا يمكنهم الذهاب للمدرسة في مثل هذه الظروف، ومن الأفضل أن يتعلما مراعاة النبات، ينبغي التفكير بالمستقبل، أليس كذلك مدام؟ ذلك أن البشر يتلاشون، كما ترين، ولكن النباتات تستمر بالنمو خلال هذا الوقت، وسنحتاج دائما إنسانا يرعاها»).

وبين هذين المشهدين تظل «هي» سجينة بيتها وهذا هو مدار حياتها اليومي. تُنشئ مختبرا للتصوير الفوتوغرافي في المنزل وتقضي ساعات وأياما في هذا المختبر المظلم. تطبع الصور التي التقطتها لكل ما وقعت عيناها عليه: الغرف، الحديقة، سطح المنزل خلال عاصفة ترابية، الآثار التي تزورها. الصور الفوتوغرافية نفسها تمتلك ذات الحيادية حتى صورها التي تلتقطها لنفسها لا تبدو فيها ملامحها تامة وكأنها تحاول الاختفاء من الصورة. الصورة الوحيدة التي نرى فيها حضورا بشريا مليئا بالحياة هي لأربعة صبيان يسبحون في ماء دجلة، وهي أيضا المرة الأولى التي تتمكن فيه من عبور دجلة بقارب وأن تتمشى في

شارع ضيق في سوق بغداد القديم. الكتاب يتطور بهذا الشكل وما ظنه القارئ تسجيلا لحياة امرأة حبيسة بيتها، سرعان ما يحل محله تسجيل دقيق لحياة المدينة، فالعالم الخارجي يدخل صفحات الكتاب عبر أمسية موسيقية في البيت، أو عبر حضور الأصدقاء والمعارف لتناول العشاء. في مثل هذه المناسبات تستكشف الكاميرا علامات المدينة من خلال تصرف لأحد الضيوف، أو عبر تسجيل دقيق لحديث عابر. وهي في كل هذه الأحوال تتجنب التعليق على تلك الصور وتكتفي بتسجيلها بكلمات مختصرة مختارة بعناية، وتطرح بين الحين والآخر أسئلة لا تجيب عليها إنما تتركها معلقة مثل مصير المدينة وساكنيها، مثل أغنية حزينة مسترسلة تحت وطأة العنف والحصار.

ولدت اليزابيث هوريم في فرنسا. درست في السوربون وفي معهد اللغات الشرقية وتعلمت العربية في دمشق وهناك تعرفت على زوجها الذي يجيد العربية والعزف على آلة الچلو. عاشت في سويسرا منذ ذلك الوقت وتنقلت مع زوجها الدبلوماسي في بلدان كثيرة: القاهرة، دمشق، ليبيا، موسكو، براغ،...

أصدرت أربع روايات: «الحلقة» (1994) التي ظفرت بجوائز عديدة وترجمت للألمانية، العنوان يشير إلى الشارع الدائري الذي يحيط بمدينة شرقية وتدور أحداث الرواية داخل هذا السور. «الكونغو-المحيط» (1996) وهو اسم سكك الحديد التي تربط العاصمة برازافيل بالمحيط، «الخيط الاسباني» (1998) و«ترنيمة البحار» (2002). آخر أعمالها «لقاءات سيئة» (2009) هي مجموعة قصصية عذبة، شخوصها هم أبناء الحياة اليومية التي تعيشها.

في كتاباتها تختلط التفاصيل المعاشة بالخيال الروائي، نثرها خصب وغني. تحول هورم تجربتها المعاشة إلى تراجيديا مشوبة بالغرابة وشعور بالاضطهاد عميق. شخوصها يعانون صعوبة من التأقلم مع

المحيط وكأنهم يتركون الحياة بمشيئتها القاسية تقودهم حيث تشاء وهو أمر مدهش لكاتبة تبدو السعادة طافية على وجهها!

بعد «شرابنل»، نشرت اليزابيث كتاب يومياتها في بغداد تحت عنوان «حديقة في بغداد» (2008) وفيه تتحدث بجرأة عن الانتخابات وعن الحياة السياسية في العراقية في ظل التحول الجذري التي عاشته البلاد. لقد تركت بغداد وصار بإمكانها أن تطلق سراح الروائية السجينة وأن تدعها تسرد سيرة الألم العراقي بعيون غربية حانية.

سعيد فرحان

لوزان 2008

١

في المطار الصغير هنالك سبعة مسافرون متوحدين، ينتظرون في البهو الفارغ، مسافرون لا يعرفون بعضهم. وقد جلسوا متباعدين، تفصلهم كراسي فارغة.

الحاضرون قلة في هذا البهو. بضعة أشخاص ينتظرون طائرة أخرى ستحلّق قبل أو بعد طائرتهم، في ذات الاتجاه. يتجنبون النظرة المباشرة ولا يلحون بالتحديق كي يتجنبوا شرط التعارف. يتظاهرون بمتابعة سير مادة في الفضاء الفارغ، ولكنهم يرقبون مجيء الموظفة الشابة التي دققت قبل حين أسمائهم على القائمة وما إذا كانوا قد دفعوا ثمن التذاكر. وبخلاف ذلك، عليهم الآن دفع ثمن التذكرة وأجرة الوزن الفائض عما هو مسموح به (هذه النقطة لا تخصّ أحدا غيرها).

امرأتان وخمسة رجال في بهو المطار شبه الفارغ. الرجال عابسون، كل منهم يملك حاسوبا وحقيبة يدوية ضخمة. حقائبهم قليلة. ربما سيغادرون المدينة التي يقصدون غدا أو بعد غدٍ. السيدة الأخرى في مقتبل العمر وقد ابتعدت عن بقية الجمع وفي أذنيها سماعتان. الهناء ظاهر على قسماتها. ربما ستلتقي هي أيضا بالرجل افترقت عنه زمنا بسبب الأحداث.

خلف الكوّة الزجاجية، على المدرج، لمحت الطائرة التي ستقلّهم.

هناك طائرات أخرى تحمل شعار إحدى المنظمات الإنسانية، وطائرات هليكوبتر عسكرية.

فوق عمان تطفو غيوم واطئة ضخمة بحواف ضبابية. وهي أولى غيوم الموسم.

الركاب السبعة توزعوا في الطائرة الصغيرة ذات المحرك الواحد. في طائرتهم هنالك ثمانية عشر مقعدا، تسعة في كل من جانبي الممر الضيق. الحقائب وضعت كلها في مؤخرة الطائرة. من مقعدها، تستطيع أن ترى حركات القبطانين. ليست هنالك من مضيفة ولا حتى تواليت في هذه الطائرة. خلف مقعديهما، وضع القبطانان حاوية مبردة، تعلوها قناني الماء.

اختفت الغيوم بسرعة. الصحراء مرقعّة ببقع غامقة أو فاتحة وبآثار بناء تشبه ندبة الجرح. يمكن رؤية تعرجات نهرية أثرية ملونة بأشرطة مختلفة الألوان: حقول مزروعة في المنحنيات التي مازالت تحتفظ بشيء من الرطوبة، من الأعلى تبدو وكأنها ثعبان مجعّد.

يتملكها العجب إزاء مشهد الآثار التي تركها البشر في هذه الصحراء. هذه الأبنية المصفوفة مثل قبور في مقبرة، هي منشآت عسكرية دون شك، ولكنها لا تهتدي لتفسير الأشكال الأخرى، ماذا تعني هذه الأشكال الهندسية، هذه المستطيلات المرسومة على الأرض. وهذه الدوائر المختلفة الأحجام، في تلك المواقع؟ الطبيعة هي الأخرى تترك آثارا غريبة، حتى لتبدو من الطائرة وكأنها تنصاع لغرض مرسوم إلى الحدّ الذي يصعب فيه تمييز ما خلفّه البشر وما تركته لا أبالية الطبيعة المدهشة. دروب تحفر أخاديد باهتة في الأرض التي تبدو الآن مخملية، كما لو كانت مغطاة بطبقة ناعمة من غبار الطابوق. مؤثر هو منظر هذه الطرق المتفرعة من بقاع مختلفة من الصحراء والمتجهة إلى... إلى أين بالضبط؟ ذلك لأنها لا تبدو من الطائرة سوى نقطة داكنة تتفرع منها هذه الدروب، مثل عقدة حبل، أو

أثر ليد خانقة على رقبة. ربما كانت نبع ماء منشود في صفحة الأفق، أو استراحة في الطريق، يمكن بعدها مواصلة طريق لا يشبه الطرق. يمكن القول إنه اتجاه حُدِّدَ في هذه الصحراء التي تبدو بلا نهاية والتي يمكن لركاب الطائرة رؤية مداها.

تحلّق الطائرة فوق طريق مستقيمة، مرئية. ترى من بعيد سيارات صغيرة محدودة العدد، تسير بتؤدة، بعضها أكبر من الأخريات: مثل جعل ودعسوقات.

ثم تزداد المناطق المزروعة. الصحراء تنسحب وتترك المكان للنشاط البشري. من هنا، يبدو البلد خصبا، مزدهرا، لا يشي بأي نوع من أنواع العنف.

على يسار الطائرة تتضخم بقع داكنة كبيرة يخرج منها نهر متعرج يشبه الحبل السري.

يحلقّون فوق بحيرات ومساحات محببة لها لون المعدن. قنوات تأتلق تحت الشمس في مسار الطائرة ثم تنطفئ.

حين رأت عجلات الهبوط، كانت الطائرة تحافظ على ارتفاعها فوق المطار، خمسة عشر ألف قدم.

تبدأ الطائرة بالهبوط بشكل حلزوني، له مدى فسيح في البدء. المدرج تحتهم يدور على نفسه، ثم تضيق دائرة الحلزون. الركاب الذين يخشون السفر بالطائرة يتشبثون بالمساند. الهواء أصبح ثقيلا وكأنه أشتق كثافته من الماء، يتصلّب كما لو كانوا يمارسون الغطس. يدور المدرج بسرعة. ضجة المحركات تصمُّ الآذان، بحيث أن مجرد النظر من كوّة الطائرة يبعث على الغثيان.

تلمح مسبحا أزرق كاليشم، محاط بقصور وكأنها تطفو فوق الماء. صار جناح الطائرة عموديا، وهو يتجه نحو المدرج مثل هدف. المدينة كلها

تدور مثل عجينة كثيفة خُلِطتْ في دَنٍّ هائل حيث امتزجت ألوان التراب، اليشم، التيتان، الدهنج.

كلما واصلت الطائرة الهبوط، اتضحت صورة القصور التي يبدو بعضها غير مكتمل. ذكّرها ذلك ببعض رسوم كتب الأطفال، المزينة بأعمدة وزقورات، حيث يظهر فيها علماء تنجيم بثيابهم الطويلة المرصعة بالأهلّة وهم يرفعون لحاهم المستدقة لسماء مرصعّة بالنجوم.

هذه الصروح التي بناها في الماضي ديكتاتور متعاظم، تعطي للمدينة طابعا خياليا، يتطابق، رغم كل شيء، مع تلك الأحلام القديمة التي يولّدها هذا الاسم : بغداد.

تدور الطائرة دورات ضيقةٌ، يهيمن خلالها شعور بأن جناح الطائرة الذي أقترب من المدرج سيصطدم بالأرض. يمكن رؤية الانحباس على الوجوه، ومن ثم لا شيء : بعد دورة أخيرة لامست الطائرة الأرض بهدوء. عندما فتحت قنينة الماء المنبسطة أصدرت صوتا : بسشت.

صعد جنود داخل الطائرة، ورافقوا الركاب حتى المدرج الباهر، ومروا بعد ذلك في الظل الخانق للعنابر التي خُزِنتْ فيها بضاعة تبدو كأنها منسية هنا. يعبرون العنبر تلو العنبر، يبدو الجنود وكأنهم يركضون. وهي لا تستطيع اللحاق بهم.

تقدم جواز سفرها الذي يحمل فيزا عراقية حصلت عليها في الأيام الأخيرة للحرب، ولم تعد لها ضرورة. جندي خلاسي يتفحصّ الجواز، يستنسخه، يأخذون بصمة أصابعها ويتركونها تعبر الحواجز. خمسة أشهر من الفراق وها (هو) الآن هنا، بإنتظارها.

2

لطريق المطار سمعة سيئة، فهو محاط في أماكن عديدة بسور من قواطع كونكريتية مرصوفة الواحد تلو الآخر. هذه الحواجز الكونكريتية التي نراها أيضا في البلدان المجاورة، توفر حماية نسبية للسيارات من أولئك الذين يرمون القنابل اليدوية لتوقف السيارات ثم يهاجمونها على طول الطرق، وبالأخص هذا الطريق.

حواجز تفتيش، أسوار من أكياس الرمل، جدران كونكريتية تقود، عبر ممرات متعرجة، إلى فوهة مدفع دبابة.

الراديو يصرّ. عبور هذا الطريق يتم بواسطة سيارتين تسيران بشكل متقارب وفي آن واحد.

ترى نخيلا وجدرانا طينية. تشعر أنها قد رأت هذا المشهد من قبل. ربما كان هذا الانطباع وليد الذكريات التي تحتفظ بها عن بلدان يكثر فيها النخيل حيث الريح الحارة تنثر غيوما من الغبار الأصفر. أو ربما جاء هذا الانطباع من المشاهد التي رأتها للحرب الأخيرة والتي نقلتها شاشات وجرائد العالم.

تتعرف أو يُخيل لها إنها تعرفت على صروح لمحتها عبر الطائرة، تكشف ذات المغالاة: الجامع الأكبر في العالم، ورشة هائلة غير مكتملة، سيفان هائلان يتعانقان، ترفعهما يدان ضخمتان من البرونز، قصور غير

مكتملة أو شبه مهدمة، قصور أخرى مكتملة تحدسها عبر الأسيجة. مدينة واسعة بطراز هجين، شرقي و«اشتراكي» في الوقت نفسه. مدينة سوف لن تتعرف عليها حقا.

وهي تعرف منذ البدء بأنها سوف لن تتمكن من الخروج إلا نادرا، لا لوحدها ولا بحرية، إنما ستظل محكومة بالبقاء على هامش هذه المدينة.

3

هدوء المساء تتخلله من حين لآخر الطلقات النارية.

يسمعون ضحك شبان في الشارع، من الجهة الأخرى للبوابة. الشارع المنوع عليها.

(هو) يصيخ السمع. (هي) تدخل الغرفة. تسأله، لأي شيء يصغي بهذا الاهتمام؟. تتصور انه ينصت للإطلاقات النارية. غير أن الأمر ليس كذلك. هنا لا أحد يصغي لصوت الطلقات النارية. كلا أنها ظاهرة أكثر فرادة: شبان يتنزهون مع هبوط الليل ويضحكون.

يقول لها إنها المرة الأولى التي يسمع فيها ضحكا منذ أن وصل قبل خمسة أشهر، عشية الحرب.

4

شيئا فشيئا صار لحضورها بصمات متعددة. عادات أخذت ترسم مسار يومها. أول هذه العادات هي أن تسبح كل صباح في مسبح الدار.

كل شيء هادئ. صوت اطلاقات نارية يأتي من بعيد. حفيف سعف في الحديقة المجاورة. نخلة تشبه ميموزا هائلة بسعفات تحمل عذوقا كبيرة وتمر جاف، يوشوش حين تتشاجر الطيور على السعفات.

لم يكن البستاني مرتاحا لمنظر الزهور التي كان قد زرعها. كان قد أهمل الحديقة خلال الحرب، لم يستطع سقيها بانتظام، والآن يتشكى من هيئة المرجة المبعثرة ومن شكل الشجيرات المصفرّة. ولكنها ترى الحديقة جميلة، غير أن الفنانين لا يشعرون دائما بالرضا أزاء ما تصنعه أناملهم. الحدائقي يعدها بأن الحديقة ستعود إلى ما كانت عليه خلال مدة عام، إذا ما بقيت هنا. سيصنع منها أجمل حدائق بغداد، بمرجة كثيرة الخضرة. الجَنْبات ستُشذّب وتنمو ورود لا يمكن رؤية مثيلها خارج هذا المكان.

تعاود السباحة. تجبر نفسها على أداء عدد محدد من الأمتار رواحا ومجيئا حتى لتستغرق كليا بالتمرين، إذ لا يمكنها الذهاب إلى أي مكان. تلتزم بهذا التمرين يوميا مثل سجين يجبر نفسه على إتباع حركات رياضية حتى لا يصيب العطب جسمه.

حولها يبدو كل شيء هادئا. نوى التمر الجاف يوشوش في العذوق حين تلامسه الريح. سعف النخلة يلامس أعلى الجدار. تسمع صلية نارية في البعيد.

تظنّ أنها وحيدة تماما، ولكن ذلك وهم، فهي ليست لوحدها أبدا. تعرف أن أحد الحراس قد صعد على السطح، يحمل الكلاشنكوف، وهو يراقب السطوح المجاورة فيما هي تسبح.

5

تستكشف المنزل الآن.

لصق غرفتهما هنالك غرفة بستائر مغلقة على الدوام، تطفو فيها رائحة نفتالين حادة. مروحة سقفية تدور ببطء وبشكل دائم. خزانات ودواليب تحتل الجدران الثلاثة. تستند إلى الجدار الرابع مائدة تعود لأصحاب المنزل الأصليين، وهي تسع بسهولة لعشرين ضيفا. لا يحيطها الآن سوى ركام متنافر. تشعر بالتطفّل وهي تعثر على أشياء صغيرة نساها المؤجرون السابقون. تجد مدفآت كهربائية مرصوفة الواحدة فوق الأخرى في أحد الزوايا مثل قطيع غنم. تعدّها. ثمانية عشر وتستنتج أنها ستشعر بالبرد هذا الشتاء.

على المائدة، وُضعتْ ثريا كبيرة من الكريستال، من أي سقف انتزعت؟

ثم تلقي نظرة على صدارها المانع للرصاص.

٦

صمت يطبق فجأة، لا تتعرف على طبيعته وهذا الصمت له صفة مهدِدة: لقد توقف جريان الحياة العادية، ما الذي حدث؟

تتوقع صوت انفجار أو أن تهتز الأرض. ثم تعزف المراوح نوتاتها الأربعة الحزينة.

لقد توقف التيار الكهربائي.

قد يستمر هذا الانقطاع دقيقة أو ثلاثة ساعات، ومثل هذا الأمر قابل للتكرار مرات عديدة في اليوم. الحرّ عاود المجيء. لم يغادر الحرّ إلى مكان بعيد، التجأ إلى الجدران بانتظار أن تتوقف المبردات ليحتل المكان ثانية. لا يزعجها هذا الانقطاع في البدء. ذلك لأن هواء المبردات يجعلها تشعر أحيانا بالبرودة. ولكنها تحس شيئا فشيئا بإرهاق لا تعرف سرّه. وهنٌ في العزيمة يهيمن عليها ورائحة جسدها تصعد حتى منخريها. ثم تعلو ضجّة المولدات في الخارج مثل شاحنة تنطلق قرب النافذة. مصباح منسيّ يأتلق. المبردات تعود للعمل بضجة تشبه ضجة منفاخٍ. تشعر بالراحة للبرودة وهي تطرد الحرّ الدخيل. وفي الوقت نفسه تغتاظ لصخب المبردات، الذي يشبه ضجة مشغل أو معمل. هل يعيشان حقا في هذا الصخب؟.

خارج الغرفة، قرب المولدات، الوضع أسوأ وأكثر مشقة بالنسبة

للحراس الذين يظلون لساعات في الحرّ وسط ضجة المولدات التي تصمّ الآذان، بقع غامقة كبيرة تنتشر على قماش قمصانهم.

تعود الكهرباء للمدينة، نزقة، غير متوقعة. المولدات تتوقف.

الحراس يغيرونّ موضع أسلحتهم ويطردون الذباب بيدهم الطليقة، بحركة ضجرة.

تبتعد عن النافذة وهي تتساءل ما إذا أحسوا أنها تطيل النظر إليهم عبر الستائر.

٦

هذه هي لحظات دخول المدينة في الليل.

من خلف زجاج نافذة السيارة، تحاول أن تختلس بعضا من مشاهد الشارع. نوافذ السيارة لا تُفتح أبدا، سمك زجاجها يصل إلى خمسة سنتمترات.

تسير السيارة على جادة طريق سريع مرتفع بعض الشيء. نظراتها تتيه في أخاديد الطرق اللامتناهية التي تضيع في ضبابة بنفسجية حيث يختلط الضباب بالليل الهابط. المحلات تبدو حزينة تحت الضوء الأبيض الحاد. إنها دكاكين يباع فيها البيبسي كولا، الحلويات، البطاريات، الشامبو والمناديل الورقية. مناضد الفواكه أمام صرائف من قماش، وهنالك رجال، رجال فقط. ليس هنالك من نساء في الشارع، ذلك أن قصص حوادث خطف واغتصاب مريعة تنتشر في المدينة. منذ بداية الحرب تعيش المرأة منعزلة. ما هو مقدار صحة هذه الإشاعات؟

المنازل وهياكلها تلمع بذات اللون. تمرّ السيارة قرب معرض بيع سيارات كبير، هياكلها تلمع تحت ضوء النيون. الحيّ المحيط بالمعرض غارق في الظلام. تمر السيارة بشوارع مضاءة، حيث يجتمع في أنحاء منها رجال جالسون حول منقلة يطهون فوقها السمك. رجال واقفون أو جالسون في غمرة تفكيرهم. بعضهم يمسك أنبوب سقي يصب منه خيط ضعيف من الماء، يبلل بقعة من الأرض أمام الباب. ثم تتساءل هي ما إذا كانت المدينة خطرة فعلا إلى الحد الذي يشاع عنها.

8

لا تحظى بعزلة كلية أبدا. فهنالك آرام وفريدة اللذان يقومان بمهمتي التنظيف والطبخ. يذهبان للسوق. يغيّران المصابيح المحترقة بسبب تكرار انقطاع التيار الكهربائي. يبدلان قنينة الغاز. يناكدان البستاني. يكويان القمصان. يلمعان الثريا. ومرة من كل أسبوع يجيئان بعامل الكهرباء جارهما. هنالك حراس يحرسون المنزل. يراقبون الشارع والمنازل المجاورة. يفتحون ويغلقون بوابة المنزل. وهنالك أيضا حراس لحمايتهما الشخصية. قبل مجيئها كانت تطلق عليهم أسم «الحرس الشخصي». غير أن هذا التعبير ليس هو السائد هنا. فقد تعلمت كلمة جديدة تُطلق على «رجال الحماية المقربّة» (CPO)، سي بي أو، وهذا الاسم هو ما ستستعمله من الآن فصاعدا.

٩

جاءتهم دعوة للعشاء في فيلا كبيرة. حين وصلوا ساعد حراس الفيلا السائق في إدخال السيارة داخل البيت وأغلقوا البوابة. في تلك اللحظة فقط سمح لهما الحراس بالنزول. استقبلهم أبناء صاحب الفيلا. المستخدمون لا يتوقفوا عن الحركة أمام النار المشتعلة وهم يقلبون أشياش اللحم. شرارات برتقالية تتصاعد راقصة ثم تختفي. الموائد منصوبة في الحديقة، قرب المسبح. ولكنهما ظلا داخل البيت يشربان نبيذا فرنسيا. التيار الكهربائي ينقطع باستمرار ولكن ذلك لا يزعج عازف البيانو الذي يواصل العزف في الظلمة.

سألها أحد الحضور: في أي حيّ من أحياء المدينة تسكن؟ ولكنها لا تعرف الإجابة. لقد وصلت قبل أيام وليست لديها فكرة عن المكان الذي تسكن فيه. تلتفت إلى زوجها، حقا، في أي مكان نسكن؟ سؤالها يُضحك الحضور. تضحك هي معهم. غير أن جهلها بالمكان الذي تسكنه يجعلها تشعر بالحرج.. إذا تمعّن الفرد بهذا التساؤل بشكل جدي، سيراه مثيرا للرعب.

10

لا تغادر البيت إلا فيما ندر.

هذا الصباح تحتم عليها الخروج من المنزل. ذلك أن عليها أن تذهب إلى (CPA)، سلطة التحالف المؤقتة.

منذ استيقاظها شعرت وكأنها متوثبة وفي الوقت نفسه رأت نفسها وكأنها كائن يستحق الشفقة. لديها موعد لاستلام الهوية الذي تُصدرها السلطات المؤقتة. مكان الموعد هو مكتب في أحدى الوزارات. رجال الحماية يرافقونها بالطبع.

في مدخل الوزارة هنالك الكثير من الرواح والمجيء. صدى الأصوات يتردد عبر الجدران العارية. الوزارة فيما يبدو موجودة في مكان مؤقت. الضجة التي تعلو في المكان مريحة، حتى أنها تبدو مرحة. يدعونها للجلوس في غرفة صغيرة تملؤها مقاعد كبيرة، بانتظار الساعة التي تستقل الباص فيها مع أجانب آخرين للذهاب إلى مقر التحالف في قصر الدكتاتور.

سيارة هومفي تسبق الباص وأخرى تتبعه، وهي حماية لا تُشعرها بالاطمئنان حقا. تحاول أن تستغل هذه المسافة القصيرة من أجل تكوين فكرة عن هذه المدينة الصغيرة داخل المدينة الكبيرة. هذه البقعة التي كانت

رئاسية من قبل وأصبحت مقر قيادة التحالف والتي يدعونها بالمنطقة الخضراء.

يمرّ الباص قرب بعض القصور التي تعرض بعضها للقصف خلال الغارات. سيارات عديدة عسكرية بالأخص تسير في الشوارع. أكياس رمل ودبابات في كل مكان. النخيل مغبّر. على حافة الطريق يتجمع باعة المشروبات الغازية، الأسطوانات ومناديل تنظيف مرسوم عليها نسر جامح على خلفية راية مطرزة بالنجوم.

لا يُسمح لهم بدخول القصر. ولا ترى منه سوى الكتلة الهائلة والرؤوس البرونزية الكبيرة التي تُزيّن مقدمة السقف. تحسّ بالتعب لرؤية الرؤوس، ذلك أنها مخيفة. يدخلونهم في بناء جاهز خارج القصر. يصورونهم. يأخذون طبعات الأصابع ويعطونهم بطاقة هوية بلاستيكية مستطيلة بحمّال رقبة أخضر تحوي الاسم والصورة. البعض يضعها حول العنق، وهي تضعها في جيبها. إذ لا أحد يطلب منها هذه الهوية. دققوا فقط بجواز سفرها. على الجدران أُلصقت بطاقات بريدية جاءت من أماكن عديدة، وصور أطفال مقتطعة من مجلات. أطفال بيض، سود، صفر. على طاولة الاستقبال رسمت كلمة (مرحبا) بألوان ولغات متنوعة من بينها العبرية. كل ذلك يبدو لها ساذجا ولكنه يبدو متناسبا مع الوجوه الشابة الرابضة خلف الطاولة. تستمع لحديث مفاجئ بين شابين صغيرين من الجنود الأمير كان. كل واحد منهم يصف للآخر الأطعمة التي كانت تعدها له أمه، هناك، في المنزل العائلي.

أناس يدخلون ويخرجون، وكل واحد يحمل بطاقة الهوية حول العنق (بطاقة الهوية البلاستيكية). بطاقة واحدة أو عدة بطاقات. كل حسب صفته وحسب حقه في الدخول إلى مناطق قريبة إلى السلطة. وكأن هذا التصنيف يشكّل دوائر عديدة لها مركز واحد، تدور حول نواة السلطة. بطاقة الهوية الذي استلمتها هي الأصغر من بين جميع البطاقات.

ثم تصعد الباص الذي يأخذ الطريق إلى الوزارة حيث ينبغي عليها أن تنتظر إجراءات أخرى لا تخصها بشكل مباشر. المنطقة الخضراء لم تعد تثير اهتمامها، لقد أخذت كفايتها منها. لديها الآن رغبة بالعودة إلى المنزل. لحسن الحظ كانت قد جلبت معها (مذكرات خادمة)[*]، وذلك يشعرها بالسرور، أن تقرأ بذاءات «ميرابو» الخليعة في وزارة عراقية.

[*] «مذكرات خادمة» هي رواية اوكتاف ميرابو الشهيرة.

11

قام زوجها بدعوة ستين شخصا، لكي تتعرف على معارفه، زملاءه وأصدقاءه. هيئوا مائدة كبيرة. العوائل دعيت والأطفال أيضا، وقد بدوا خجولين بعض الشيء، جالسين قرب أهليهم على الكنبة.

الضيوف يتناولون المشروبات الغازية الحلوة، عصير برتقال أو أجاص. الأجانب منهم اختاروا النبيذ أو الشمبانيا. الحرارة شديدة في الخارج. رغم أنها بداية الخريف، يبدو الصيف مهيمنا حتى الآن.

المدعوون اختاروا الجلوس في الداخل ما عدا بعض الأجانب الذين جلسوا خلافا للآخرين على حافة المسبح. الخدم يدخلون ويخرجون، وهاهو أحدهم، يضع كوعيه على حافة مائدة المطبخ، وقد شدّ منديلا على جبينه المدمى. لقد اصطدم بزجاج الباب المغلق بسبب تشغيل المبردة. وهو باب ونافذة في الوقت نفسه وقد نظفته فريدة بكثير من العناية.

بعض الأجانب جلبوا معهم لباس السباحة. امرأة تجفف جسدها في الشمس وهي ترتدي البكيني. بعض النساء المحجبات يعدلن من هيئة حجاب بناتهن الصغيرات. إحدى السيدات كانت ترتدي قفازا أسود لمصافحة المدعوين وعندما صافحت جميع الرجال خلعت القفاز ووضعته في جيبها. حين حلّ وقت تناول الطعام، طلبت من المرأة ذات القفاز أن

تتفضل بافتتاح المائدة وأخبرتها بتحفظ أي من الأطباق هو الديك المطبوخ بالنبيذ.

قبل أن تغادر، قبلتها هذه المرأة كما لو كانت صديقا قديما ووضعت قفازها ثانية لتصافح الرجال.

12

مع مرور الأيام، اكتسبت عادات جديدة واختفت من حياتها عادات أخرى كانت تمارسها يوميا، على سبيل المثال فتح وغلق باب البيت بمفتاح كما كانت تفعل دائما وفي جميع الأمكنة التي كانت ترتادها. المفتاح الذي يدور في القفل ثم يوضع في الجيب أو يُعلق على مسمار في الداخل. الآن عندما يعودان إلى البيت، يهبطان من السيارة وينتظران. أحد رجال الحماية يفتح الباب ويستطلع جميع الغرف قبل أن يؤذن لهما بالدخول. ثم يغلق الباب بالمفتاح.

التلفون لا يشتغل. لا أحد يتصل بهما. هما يتصلان بالآخرين بالتلفون الخلوي عبر الأقمار الصناعية. رفع سماعة التلفون هو أحد تلك الأفعال التي لم تعد تتعاطاها.

وهنالك أيضا تلك العادة اليومية التي تتضمن إخراج النقود من المحفظة لدفع سعر مادة ما. ثم أنها لا تحمل معها نقودا وعلى أية حال لا يمكنها الدخول لوحدها في متجر لشراء حاجة. في البداية كانت تحمل حقيبة يدوية في داخلها مناديل ورقية وبطاقة الهوية التي أصدرتها السلطات المؤقتة. بعد ذلك فضلّت أن تضع الهوية في جيبها وأن تركن الحقيبة في الدولاب، لأنها لم تعد نافعة.

13

على حافة المسبح تحطّ الزنابير وتطير بشكل منتظم وكأنها طائرات مروحية. هنالك شيء عسكري في هيئتها، ربما كان مردّ ذلك إلى ذنبها القائم الكثير الاستقامة ورؤوسها الكبيرة المغطاة بخوذة سمراء. شبيهاتها تحلق فوق المدينة بشكل واطئ، بشكل ثنائي.

تتسلى بتخمين أماكن ظهورها : من هنا، من هناك. وهي تخطيء دائما بتحديد هذه المواقع، حتى أدركت في النهاية بأنها غالبا ما تظهر في الجهة المعاكسة للجهة التي يدبّ فيها طنينها. ذلك أن ما يجعلها تخطيء هو الصدى الذي تردده حيطان المنزل والحديقة، خلف المسبح.

14

دعوهم لتناول السمك المسكوف الذي يعدّه قاسم بشكل أسبوعي.

خرجا مع هبوط المساء.

اختطا طريقا سريعا سرعان ما تعرفت عليه، ذلك ما منحها شعورا بأنها في مكان أكثر ألفة. تركت نظراتها تسرح حتى نهاية طريق مستقيم. الأحاسيس الأولى تلد وتضمحل وكأنها تشاهد فيلما بالحركة البطيئة عبر شاشة النوافذ المضادة للرصاص.

(حوار) هو كاليري ومطعم في الوقت نفسه، ولكنه يختلف عن بقية المطاعم. إنه بالأحرى حديقة يمكن تناول الطعام فيما إذا تم حجز وجبة الطعام فيها.

قاسم هو صاحب الكاليري وهو رسام أيضا، يحدق بالجمر، ويراقب السمك الذي حولته النار إلى لون برتقالي شفاف. يتحدث وهو يضحك عن النار التي تنتظرنا في الجحيم. إنه يحب إحياء الأماسي وينظم بشكل عفوي السجع حول مواضيع خليعة. شكله ولون بشرته يوحيان بأنه هندي ولكنه من قبيلة الدليم الكبيرة.

هذا المساء كان من ضمن المدعوين عجوز ألماني، بروفيسور في الطب، فيما مضى كان يعالج الملك فيصل. ورغم تقدمه في السن، ها هو يعود للعراق الآن ليحقق في آثار قنابل اليورانيوم على صحة الأطفال. نراه

أحيانا وهو يتحدث أمام كاميرات التلفزيون. إنه كثير الجدية ويرفض أن يخلع سترته، وهو ما فعله جميع الحضور من الرجال.

خلال العشاء ظل مصرا على الحديث عن قنابل اليورانيوم، وهو يجرّ الحديث دائما للموضوع ذاته. أخبار هذا اليوم تتحدث عن مقتل أجنبي مقيم في البلاد وهنالك تفجير ضد مركز للشرطة أدى إلى مقتل سبعة أشخاص وعشرين جريحا، أربعة منهم بحالة خطرة. لا أحد إذن يريد سماع حديث عن قنابل اليورانيوم، لا أحد يريد إفساد سهرته بقصص عن هذه القنابل أو رؤية صور الأطفال المرضى. هذا المساء يريدون التمتع بهذه الصحبة، بالموسيقى التي تعزفها الفرقة التراثية. يريدون شرب العرق والنبيذ وأن يطيحوا برؤوسهم للوراء لرؤية السماء عبر أغصان النخيل.

15

مُنعت السيارات من الدخول إلى فندق الرشيد خوفا من التفجيرات.

عليهم ترك السيارة في مكان وقوف خاص وقطع مئة أو مائتي متر مشيا على الأقدام، وهو أمر نسته إلى حدٍ ما. فهي لا تملك فرصة للمشي إلا في حديقتها، بضعة خطوات تفصل البيت عن المسبح. وهاهي تمشي الآن في الطريق إلى فندق الرشيد، حيث دُعيا لتناول العشاء، وتتذوق متعة تعاقب خطواتها الواحدة تلو الأخرى. مثلما يحدث ذلك في عطلة الصيف التي يقضونها خارج البلد، حيث يمشيان مساءاً في مدن حارة أو في ممر محاط بالنخيل.

الممرات طويلة داخل الفندق لحسن الحظ. يمكنها إذن أن تمشي وهي تمشي بمتعة حقيقية.

يذهبان في البدء إلى البار حيث يقبع شابان ضجران. المكان مُبرّد وكابي وهو مغطى بالمرمر الأسود. ظلا واقفان يحتسيان البيرة الألمانية. زوجها يحادث المضيفين وهي، لا تنصت إنما تسرق نظراتها شاشة تلفزيون مسطحة حيث يجري لاعبو كرة قدم بقمصان حمراء وزرقاء في ملعب شديد الخضرة. خلف كوة الباحة المزججة، يهبط الليل. يخيل لها أن النهر أصبح مظلما والجنود في حالة استعداد. يتركان البار. لاعبو كرة القدم

تركوا الشاشة لرجال يرتدون بدلات. يتبعان الضيوف في الممرات التي تبدو غير متناهية. وهي تمشي وتواصل المشي.

صالة الطعام باردة ليس فيها شيء مميزا وهي شبه فارغة. على الجدران هنالك بنادق قديمة مطعمة بالأصداف وهنالك ديك بري محنط. موضوع ديكور الحائط إذن هو الصيد. الخدم المقتنعون بأهمية عملهم يبدون أكثر جدية. غير أن الشراشف وسخة وهنالك فتات خبز على الأطباق وتحت الصحون. المضيّف يحاول اختيار أحد أنواع النبيذ. يطلب نوعا مدونا في قائمة المشروبات، ثم نوعا آخر ولكن ليس هنالك أي من الأنواع المسجلة على القائمة. مسؤول الخدمة يؤكد لهم أن هذا أمر لا أهمية له، وإن طلبهم غير موفق وإنه سيجلب لهم قنينة نبيذ خاصة. ما الذي يمكن قوله في مثل هذه الحال. على أية حال يتحتم عليهم تذوق هذا النبيذ السئ.

الجدران سميكة حتى أنهم لم يسمعوا اطلاقات القذائف التي سقطت قرب الفندق بينما كانوا يتناولون العشاء.

16

جلسا عند الرواق الخارجي. هو يقرأ الجرائد وملخص الأخبار وهي تقرأ رواية. هبط المساء وأخذا يتقاسمان ضوء المصباح الأصفر الهابط من المصباح حيث تسبح في مداره حشرات صغيرة. تحكّ أخمص قدميها للمرة العاشرة.

من الشرفة المجاورة يمكن رؤية شرفتهما. الشرفة وهي مضاءة بهذا الشكل تبدو وكأنها حوض أسماك. بقية المنزل مظلمة. غير أن حراس الليل الذين حلوا الآن لم يتوانوا عن إشعال المصابيح والبروجكترات التي أضاءت أرضية الحديقة الخضراء.

المنزل المجاور أعلى من بقية المنازل. إنه كتلة صماء ليس فيها أي ضوء. وهو فارغ مثل الكثير من منازل الحي الأخرى التي تركها أصحابها. قبل أن يرحلوا، أناطوا مهمة حراستها لأُناس يعرفونهم أو أن هؤلاء اقترحوا شخصا يعرفونه، شقيق عامل المطبخ أو ابن عم السائق. أعطوه بندقية كلاشنكوف ودفعوا له مرتبا يكفي لبضعة أشهر.

تنظر للأقواس التي تزين شرفة ذلك المنزل والتي ترتسم بخطوط غامقة على صفحة السماء المظلمة. يمكن رسم خط مستقيم بين أحد هذه الأقواس وبين البقعتين المضيئتين اللتين تشكلهما ملابسهم. ليس هنالك من حاجز بين الاثنين وذلك يعني بالطبع انعدام الوقاية.

نصحهما رجال الحماية بإخلاء الرواق والجلوس لصق الجدار المقابل حتى يصبح من المتعذر رؤيتهما عبر شرفة الأقواس.

17

جاءتهم رسالة من أوربا. جاءت بالبريد. نعم بالبريد. شخص من معارفهم، في بلادهما، كتب عنوان المكتب على المظروف، لصق طابعا عليه دون أن يساوره شك بوصولها. وهكذا طافت الرسالة. لا أحد يستعمل خدمة البريد هنا. للمراسلات مع الخارج هنالك البريد غير الرسمي. هنالك خدمات خاصة تعتني بإرسال الرسائل، أما البريد الرسمي.....

أبْديا إعجابهما بالمظروف، بالطابع القادم من بلادهم وبالختم البريدي الذي وضع عليه قبل أربعة أشهر.

اعترتها رغبة أن تفعل الشيء نفسه ولكن بالاتجاه المعاكس. ولكن من أين تشتري الطوابع؟ زوجة أحد الحراس تعمل في البريد المركزي. وقد وعدتها بالحصول على المعلومات اللازمة. عليها بالانتظار، هذا ما تقوله لها فالطوابع القديمة التي تحمل صورة الرئيس المخلوع لم تعد صالحة. وحتى هذه اللحظة لم تصدر طوابع جديدة. بانتظار ذلك، طوت رسالتها ووضعتها في الدولاب، ثم سرعان ما نستها.

18

جاءتهم دعوة للعشاء في منطقة بعيدة إلى حد ما عن الحي الذي يسكنوه.

سلكوا ذات الحيز الذي تعرفه من الطريق السريع.

تعرفت على معرض السيارات المصفوفة التي تعكس هياكلها ضوء النيون.

ساروا ببطء في شارع تجاري طويل بحثا عن بائع زهور. استدارت السيارة في نهايته وسلكت طريقا آخر في الاتجاه المعاكس. إنها السادسة والنصف وهنالك حشد كبير من السيارات في الشارع.

غريبة هي حالتها في هذه المدينة، حيث لا تتنقل إلا بسيارة مصفحة ذات نوافذ مغلقة على الدوام، معزولة عن العالم الخارجي حتى فيما يخص المناخ، فهواء جهاز التكييف لا يسهل إمكانية تخيل درجة الحرارة في الخارج.

الزهور المعروضة هي زهور بلاستيكية. الزهور الطرية موضوعة في الثلاجة.

يشترون باقة كبيرة من الورود وهي بضاعة فريدة وغالية. الورود بيضاء ووردية. منذ أسابيع لم تصادف عيناها وردة.

احد أفراد رجال الحماية، يحرس الباب وهو منتصب بعزم على

ساقيه المنفرجتين، يحدق في الشارع ثم ينسحب لكي يترك الزبائن يدخلون. يدخل شابان يرتديان ملابس الرياضة. يلتفت الحارس ليرى ما يحدث داخل المتجر وهو يواصل مراقبة الشارع. قماش الملابس الرياضية يشع في ضوء النيون ويطلق رائحة تعرّق قوية.

واصلوا البحث عن المنزل. داروا طويلا في حيٍّ لا يعرفونه. دلوهم على منزل واكتشفوا انه ليس البيت المنشود. الخريطة التي زودوهم بها لا تساعد في العثور على المنزل بسبب كثرة الطرق المسدودة. إنه حي سكني بفيلات هائلة وسط حدائق كبيرة. هنالك حراس أمام جميع البيوت وفي جميع الشوارع الفرعية هنالك شوارع فرعية جديدة صنعتها براميل مملوءة بالرمل، قواطع كونكريتية وحتى جذوع النخل.

وهم في طريقهم يرون عبر باب سيارة مفتوح، حارسا ينسّل برقة تحت لحافه وهو في طريقه لقضاء ليلة سعيدة كما لو كان يسكن في مخيم سياحي هادئ. المشهد يدعو للابتسام.

أحيانا يتوقف السائق ليسأل الحراس عن وجهته. وهو يغلق باب السيارة بالمفتاح كلما خرج منها. وفي النهاية يصلون المكان في الموعد المحدد.

تستقبلهم سيدة الدار وعلى كتفها ببغاء أخضر.

19

كل مساء تقريبا يسمعون صوت إطلاق القذائف. مخافر الشرطة هي أحد أهداف التفجيرات اليومية. سيارات ملغومة تستهدف الجوامع والفنادق والأسواق.

قام الحارسان بمهمة تتطلب صبرا: قياس أحجام قطع الزجاج في نوافذ المنزل. لكي يعمدا إلى قص أوراق بلاستيكية لاصقة وشفافة بذات الحجم لتُلصق عليها . انه عمل دقيق ومتعب دون شك.

رغم الجهد الذي بذلاه، تظل فقاعات هوائية حبيسة تحت البلاستيك. حتى أنها حين تنظر للخارج وهي جالسة خلف طاولة الكتابة، ترى جزء الحائط المقابل والنخلات كما لو كانت مرئية عبر زجاج غطاه المطر.

20

يجيئان كل مساء في الساعة نفسها تقريبا. وكأنهما اجترحا هذه القاعدة. لا أحد يراهما في النهار، ما الذي كانا يفعلانه في ذلك الوقت؟

يأتيان دائما من المكان ذاته. ربما وجدا مكانا ينامان فيه حتى أجبرهما الجوع على الخروج. يأتيان سوية كما لو كانا يفتعلان الجهل ببعضهما. هي كانت أول من يأتي. فهي أكثر جرأة منه وهو يتبعها وكأنه غير معني بالأمر، وكأنها هي التي أرادت المجيء، وهي غطرسة يعبر عنها بنوع من التفاخر.

هي أكثر نحافة منه. ربما كان يعرف هو أماكن أخرى يقتات منها، أو ربما اجترح وسائل عيش أخرى.

من النظرة التي يلقيها عليها يمكن تخمين نوعية نهاره الفائت. بطنه خاوية، وهو ينام كي ينسى جوعه. ينام بعين واحدة ذلك أن الحذر من كل شيء هو أمر لا بدّ منه. وإذن فهو يدعها تأتي قبله بجسدها الضامر وبهذا النواح الذي تطلقه لتطالب بما تعتبره مستحقا لها. وهي تملك الهيئة المناسبة لملء دور المتسول هذا. تأكل بنهم وبشراهة تدعو للرثاء، وهو ينظر وكأنه غير مستعجل. وعندما يطمئن إلى عدم مراقبة أحد له يلتهم الطعام التهاما.

مرة رأتهما يتشاجران بسبب جناح دجاجة. أية علاقة تربطهم

بالضبط؟ أهما أخ وأخت؟ هل أصبحا شريكين في الوحدة والتشرد؟ عندما نلمح أحدهم فذلك يعني أن الآخر ليس بعيدا عنه أبدا. ينظران باحتقار إذا نست الخادمة أن تقدم لهما فضلات الطعام. هذان المعدمان يمكن أن يموتا جوعا لولا هذه الوجبة. فريدة الخادمة تضع لهما كالعادة المزيد من الطعام، ولكنهما لا يردان ذلك بإشارة شكر أبدا. وهو مشاكس، ذات يوم بصق عندما مرت إلى جانبه. تظاهرت بأنها لم تلحظ فعلته. ربما شعرت براحة لو انقطعا عن المجيء. لو توقفت عن تقديم فضلات الطعام مرتين أو ثلاث، هل سيبصق حينها في وجهها؟ عليها أن تعترف بشعور الخوف الذي يعتريها عندما تراه. لو توقفوا عن تقديم الطعام لهما، هل سيسلكان طريقا آخر غير طريق هذا البيت. سوف لن ترى إذن هذا الثنائي المتضور جوعا. وهو ما تردده دائما. ولكنها تنتظر مجيئهما كل مساء. وعندما يتأخران، يفاجئها شعور بالقلق وتأخذ بالبحث خلف السياج عن الطيف الأخضر لبؤبؤ عينيهما المصدوعين.

21

حفل نهار أمس وحده بخمس تفجيرات سقط فيها أكثر من أربعين قتيلا وحوالي مائتي جريح.

- «وحوش يا مدام، وحوش. لو كان بيدي لقبضت عليهم جميعا. لأحتجزتهم سوية ونسفتهم بقنبلة وكفى. لم يعد بإمكاننا الخروج. شقيق جارتنا قتل في الطريق بلا سبب. بناتنا سجينات البيت طيلة اليوم، لا مدرسة، لا نزهة، لا مسبح، لا شيء. لا أدري ما إذا كنا سنتجرأ على الذهاب للصلاة. وحوش. متى سيقررون إعادة العمل بعقوبة الإعدام!».

تحاول أن تضحك وتتفادى أن تأخذ قولها على مأخذ الجد ولكنها لا تستطيع ذلك، فهي تعرف أن فريدة تقول ما تؤمن به. هذا النوع من الكلام يصدمها، إذ لا شيء يجعلها تشمئز أكثر من عقوبة الإعدام. حول هذا الموضوع سوف لن تغير رأيها أبدا.

22

لاستعمال التلفون الخلوي عبر الأقمار الصناعية، ينبغي الصعود إلى السطح. للحصول على خط، ينبغي البحث عن الاتجاه المناسب. بضعة خطوات من هنا وبضعة خطوات من هناك. ينبغي تحريك طرف سارية الأنصال في الاتجاهات الأربعة حتى العثور على الموقع المناسب. تبدأ بعدئذ مكالمة شبيهة بالصياح مع شخص في مكان ما من أوربا. كلماتها يرددها الصدى. هنالك فارق زمني بين اللحظة التي تتكلم فيها واللحظة التي يسمع فيها الكلام هناك. كل يحاول ترك المجال للآخر لمواصلة الكلام، وفي النهاية يأخذان بالكلام في الوقت ويستحيل فهم ما يقولانه، هي ومحدّثها. حينئذ، ينبغي معاودة المكالمة. مثلما يحدث حين نحيي بعضنا طويلا أمام الباب ولكننا نصطدم في نهاية الأمر ببعضنا في لحظة المرور.

إنها تحب الصعود إلى السطح. أحيانا تعمد إلى الصعود دون أن تخبر الحراس وكأنها تقوم بنوع من الاختبار، أو كأنها تقوم بنوع بائس من التمرد. ولكن الحراس سرعان ما يحسون بها في الحال. يصعد أحدهم خلفها ويقف متأهبا على مبعدة منها. السطح يمتد مثل شرفة على مساحة البيت كله وهو محاط بسياج من الإسمنت ماعدا الجهة التي يطل فيها على الشارع. الأرضية محددة بفواصل من القير الرمادي الثخين، مطوي في بعض الأماكن مثل حمم بركان بردت. أجهزة التبريد مثبتة هنا وهناك. وهي تحاول أن تُخمّن أي غرفة من الغرف يبردها هذا الجهاز أو ذاك. الشمس

تضرب بقوة في الأعالي. الملجأ الوحيد هو الظل المنحسر لخزانات الماء الأربعة (في الصيف يتدفق من صنبور الماء البارد ماء حارق) وهنالك أيضا كرسي حديقة قديم يستعمله الحراس وقد ماعت عوارضه البلاستيكية.

تعودت هي على عدم المكوث طويلا عند الأطراف خشية أن تُرى (أو أن تصبح هدفا للرماة. ذلك هو ما تخشاه في أعماقها، دون أن تتجرأ على البوح به). ترى نخلات وتلمح قبة الجامع المجاور اللامعة. سيارة تعبر جسرا يمتد على دجلة، النهر الذي لا تراه من هنا. الطريق تمتد حتى الضفة الأخرى المحاطة بأكملها تقريبا بجدار من الكونكريت، حيث يفتش الجنود بعض السيارات. ترى أحيانا البرج الطيني اللون لفندق بابل حيث ظلت مرسومة جملة «سنة سعيدة» بالإنكليزية (هذا ما لا تستطيع رؤيته من السقف بالطبع ولكنها لاحظت ذلك مرة وهي تمر بالسيارة).

قرب المنزل ترى أقواس شرفة المنزل المجاور الذي يطلّ على منزلهم. وعندما تخفض بصرها ترى مرجة الحديقة التي تبدو من الأعلى مشتتة أكثر مما تصورته. من الجهة الأخرى تستطيع أن ترى الشارع والبوابة والحارسين في وضع متأهب خلف أكياس الرمل في موضع المراقبة الذي يصعدان إليه عبر سلم. بتحفظ، تحاول أن تتفادى النظر إلى هذه الجهة.

في الليل على وجه الخصوص، تحب أن تصعد إلى السطح، لتراقب مرور الهليكوبترات التي تدور، مطفأة الأنوار، حول المدينة، تسبح مثل حوت في السماء الحليبية.

23

أنشأت مختبرا للتصوير الفوتغرافي، أخذت تمضي فيه ساعات طويلة وأحيانا يوما بأكمله، سابحة في الضوء المخضّر للمصابيح المضادة للإشعاع، وهي تطبع صورا للعالم الخارجي: مناظر طبيعية، شرفة مقهى، صور أناس عزيزين عليها.

هنا لا يمكنها أن تلتقط صورا، ذلك أنها لا تخرج أبدا أو تقريبا.

وهي تمتلك مصباحا تنغستيني وصندوق إضاءة. وقد عمدت إلى وضع كرسي أمام حائط أبيض في مدخل لا يمرّ به أحد، وأخذت تدعو الناس المحيطين بها واحدا واحدا. شعرت في البدء بالخجل. فهي تخشى أن يرفضوا طلبها أو أن لا يحلو الأمر لهم. ولكنها اكتشفت العكس. فالحصول على صورة شخصية (نسختان لكل واحد) هو أمر يسرهم، وهنا لا يوجد الكثير مما يجلب السرور.

في البدء راحت تصور الرجال، وبدأت بتصوير ذلك الشخص الذي كان يعجبها من بينهم. وقد أخذ ينظر باستقامة باتجاه عدسة جهاز التصوير. له ثلاث طيات على الجبين وشكله يوحي بقلق دفين. شعر رأسه يشبه في قطعه، شعر الجنود. اللحية والشارب يعكسان هيئة فكه المشوهة. ربما لم يجد أهله مبررا لوضع جهاز تعديل الأسنان عندما كان صغيرا، مثلما هي الحال في أوربا.

في هذه الصورة يظهر وهو يرتدي ملابس مهترئة رقعت ياقتها . أهي زوجته التي رتقتها أم انه رتقها بنفسه؟ أم أنها ملابس عثر عليها، سترة قديمة مستعملة.

24

حركة السيارات على الطريق تبدو خطرة بشكل يثير الرعب. الحرية التي ما زالت طرية لم تُفهم دائما على نحو جيد. السيارات تجري في كل مكان ولا تتوقف إلا عندما يصبح الأمر ضروريا. سيارات تتزاحم. سيارات تحتل الطريق عنوة. كل سائق يحاول أن يرهب الآخر ليأخذ مكانه. يقطعون الميدان الكبير بخط مائل أو يسيرون على الطريق السريع بشكل معاكس. أولئك الذين كانوا يحلمون في طفولتهم أن يكونوا شرطة مرور، يمكنهم تحقيق حلمهم الآن. في كل مكان تقريبا من المدينة نرى من ينصب نفسه شرطيا، يحيط صدره بحمالة أو يضع على الساعد قماشة تحمل اسما جميلا «أصدقاء المرور». إنهم جريئون. يقفون وسط الساحات ويقومون بإشارات لا يتبعها أحد. تفانيهم لا ترهبه الخطورة. فلنمتدحهم إذن على هذه الصفحات.

25

للذهاب إلى وسط المدينة، يمكن إيقاف السيارة قرب مبنى السفارة البريطانية على ضفاف دجلة، وامتطاء مركب نهري. إنها مراكب طويلة وضيقة يمكن تصنيفها بين الجندول(*) والجذعية(**) وفيها ينبغي تجنب الحراك.

ابتهجت لوجودها وسط هذا النهر الذي يمر قريبا من بيتهم والذي لمحته أحيانا حين تسير السيارة لصقه أو حين تعبر الجسر للذهاب إلى المنطقة الخضراء.

على الضفة الأخرى تبدو المدينة منبسطة مرقطة بالأشجار. كل شيء هادئ. وضجيج المحرك يبعث على الطمأنينة.

رسا المركب بين باقتي قصب.

أربعة صبيان يدلكون أجسامهم بالصابون، فخورون بأجسادهم الضامرة المعضلة التي تغطيها رغوة الصابون. أجسادهم تلمع تحت الشمس. لاحظوا آلة التصوير ووقفوا في وضعية فوتغرافية، ثم غطسوا في الماء. الرغوة تدحرجت مع التيار واختفت بسرعة.

(*) قوارب مدينة البندقية الايطالية.

(**) جذع شجرة مفرغ.

دخلا في حيّ لا تعرفه.

تأخذها الدهشة وهي تمارس ما كانت تظنه مستحيلا: أن تمشي في شارع. يحيط بهما ثلاثة رجال. أسلحتهم في أغمادها مما يمنحهم هيئة شبيهة بهيئة عازفي الكمان. رجل رابع يتبعهم عن بعد، لكي يحافظ على رؤية شاملة لمجموعتهم الصغيرة، وهو يحمل حقيبة ظهرية مليئة بمواد طبية للحالات الطارئة.

الجو حار. إنها ساعة الصلاة. ليس هنالك الكثير من الناس في الشارع. الستائر تغطي العديد من المتاجر.

القذارة المهيمنة هي ما يصدمها في هذا الحي. فهي تمشي على قشور الفواكه، على أكياس قمامة مبقورة، على فضلات تجذب الذباب. هنا وهناك ثمة أكوام قمامة تحترق وتبعث دخانا. يمرون بحوانيت طعام بائسة. ترى الذباب يتنزه فوق صحون اللحم، وتشعر بالحر القابع هناك. بضعة زبائن يتناولون الطعام فالوقت مازال مبكرا. نظراتهم ليست عدائية. يبتسمون لهم مرات عديدة. وهي لا تستطيع أن تجد معادلا يجمع بين هذه الوجوه المرحبة وهذه الوساخة المتكاثرة.

يدخلان في باحة مهجورة لمدرسة قديمة(*).

قماش أصفر طويل منشور على حبل غسيل هو الشاهد الوحيد على حضور البشر في هذه المدرسة. يصعدون السلالم للوصول إلى الرواق المسقوف الذي يطل على الباحة من الأعلى. تلحظ أحد الحراس وهو يتابع بنظره الكورنيش الضيق الذي يطل على الباحة. زرقة عينه تلمع وكأنه يتحدى الدوار. أحد ما يسحب الرداء الأصفر ويختفي، وراء أحد الأعمدة.

(*) المدرسة القديمة التي تذكرها هوريم هي المدرسة المستنصرية المحاذية لنهر دجلة في جانب الرصافة.

انتهى وقت الصلاة. عليهم الإسراع بالعودة فالناس ملأت الشارع. الخروج في مثل هذا الوقت هو أمر نادر الحدوث. يرغبون بالتنزه لحظات إضافية أخرى في الأسواق، الأسواق التي رأت مثيلاتها في أماكن أخرى. أسواق تباع فيها التوابل، مناشب الكهرباء، ألعاب، ملابس، طناجر، الأحجار الصاقلة، المناشف، الأزهار البلاستيكية.

يسيرون الآن بعكس اتجاه الحشد. ينبغي السير بشكل محاذي. الحارس الذي يحمل الحقيبة الظهرية لا يستطيع الحفاظ على مسافة كافية بينه وبين المجموعة.

أحد الأطفال يلهو ببندقية بلاستيكية. عندما يضغط على الزناد تنبعث ضجة اطلاقات وتومض مصابيح صغيرة بألوان متعددة. جده يمثل دور الضحية. يتظاهر بالسقوط ببطء وهو يصيح بوجه القناص الصغير، وجسده يرتعش متشنجا على صفحة الجدار، ووجهه ممسوخ بتكشيرة الألم. الطفل يصيح ضاحكا والجد يبعث حيا وينهض. مصابيح البندقية تومض ثانية ويأخذ هو بالانزلاق على صفحة الجدار.

لقد اكتفوا بما أتيح لهم رؤيته هذا اليوم. فالبقاء لفترة أطول هنا سيصبح ضربا من الطيش. يعودون إلى موقف السيارة مشيا على الأقدام. يعبرون الجسر وكأنهم يهرولون. على الجسر يصادفون شبانا صغار. يشيرون لهم بإشارات ويومئون بهيئة شخص يلتقط صورة ويسألونها بالإشارات متى سيحصلون على صورتهم. لم يدر بخلدهم أنها تفهم اللغة العربية.

26

في مكتبة غرفة العمل عثرت على صور قديمة مؤطرة لرجال يمشون بتؤدة. بناطيلهم مكوية بشكل معتنى به. أنهم فيما يبدو شخصيات مهمة والصورة التقطت خلال زيارة رسمية لهم لبلد آخر. زيارة استمرت مصافحة الأيدي فيها طويلا، العيون تتطلع باتجاه عدسة آلة التصوير. لقد نشرت هذه الصورة دون شك في مجلات ذلك الوقت. شاب شديد السمرة جالس في ليموزين[*] بجانب امرأة ليست كأي امرأة أخرى، فهي ملكة بريطانيا. أمراء بنظرات فتية واثقة يبتسمون لخطيبة الأمير. الملوك بهيئتهم الحكيمة المرحبة يتفردون عن الجمع بوجود إكليل ملكي محفور على إطار الصورة الخشبي. هنالك أيضا صور لرؤساء وقورين ومهمومين تماما مثل أرباب عائلة حريصين.

ومن بين صور هؤلاء الناس الأفاضل، تجد صورة للرئيس الأخير في شبابه. انه لا يقل قيافة عن الملوك والأمراء ولكن نظرته تشي بوميض انتصار سرعان ما سيخونه وفي ابتسامته غطرسة من يؤمن بخلوده الشخصي.

---

[*] سيارة خصوصية تتسع لست ركاب.

27

انقطع التيار الكهربائي.

هي الآن في غرفة الاستحمام. الجو حار كآتون ولكن الماء ليس حارا إلى هذا الحد. الصنبور مغطى بطلاء ذي لون ذهبي كامد يعكس ضوء النهار الشحيح النافذ من الشباك الصغير. المروحة توقفت.

أمسكت بحجر الصقل الأسود الذي اشترته من السوق. داعبت كتلة الحجر الخشنة وحاولت أن تتخيل المحيط الذي تكوّن فيه.

صوت انفجار يهز المنزل كما لو انه قد هوجم بمنجنيق. انه انفجار بعيد دون شك ولكنه كان شديدا. ثم يطنّ انفجار آخر. قلبها أخذ يدقّ بسرعة. أركنت حجر الصقل ويداها ترتجفان. انتظرت وأصاخت السمع. ستندلع انفجارات أخرى هذا اليوم.

تجاوزت الساعة الثامنة صباحا.

إنه إعلان مجيء شهر رمضان.

28

دُعيا لأمسية شعرية في مركز ثقافي افتتح حديثا.

حُرِم الناس طويلا من حرية الحوار، وقد افتتحت الكثير من المراكز الثقافية، ونشأت أحزاب سياسية، وظهرت الكثير من الصحف اليومية.

هذا المساء قرأ ثلاثة شعراء قصائدهم في قاعة كبيرة عارية الجدران تتردد فيها الأصوات وهي تشبه قاعة درس، بيضاء، مضاءة بشكل حاد بأضواء النيون. ليست هنالك منصة، إنما بضعة كراس تحيط بطاولة أمام الصالة الممتلئة، الغاصة بالحضور. البعض واقف في نهاية القاعة أو جالس على الأرض. أنسل أحد حراسهم بين الحضور. حجزوا لهما مقعدين في الصف الأول، وعلى منضدة خفيضة وضعوا فنجاني قهوة وقدحي ماء. الجميع يشرب القهوة ويدخن. منافض الدخان مليئة. ليست هنالك امرأة في القاعة غيرها. القراءات الشعرية بدأت في الساعة الخامسة. سيحل الليل حين تنتهي القراءات. النساء لن يغامرن بالخروج في ساعات كهذه. الحضور جمهور رجالي إذن، رجال بقمصان ذات خطوط أو ببدلات رخيصة. أساتذة جاءوا بعد محاضراتهم، مثقفون من الطبقة الوسطى جاؤوا من مكاتبهم في الوزارات.

الشعراء الثلاثة تتالوا أمام القاعة لقراءة أشعارهم. استمرت القراءات فترة ساعتين كاملتين ولم تفهم الشيء الكثير، ورغم ذلك تمتعت بهدهدة لحن العربية الكلاسيكية.

29

هم الآن مع رجال الحماية في الحديقة من أجل تمرين وقائي.

- هل سنتعلم كيفية أطلاق الرصاص؟

- كلا، سيدي، إنما كيف سيطلق عليكم الرصاص.

ذلك يعني تعلّم كيفية التصرف خلال هجوم بالرمانة أو على الأقل تكوين فكرة عن مثل هذا الهجوم.

قبل كل شيء عليهم الهرولة حتى يمكنهم تحديد المسافة التي يقطعونها بأربع ثوان أو ثانيتين ونصف الثانية... ثم يليه التمرين الذي يتلخص بالشكل التالي : يرمي أحد الحراس بعلبة صفيح فارغة ويصيح «رمانة»، ينبغي عندها الهرب وفي نفس الوقت تعيين المكان الذي سقطت فيه الرمانة، ثم عليهم قطع أربع خطوات عريضة، وخطوات مثل هذه سوف لن تقودها بعيدا، ثم ينبغي الانبطاح على الأرض مع الأخذ بعين الاعتبار أن تكون في مدار السلاح بحيث تكون صفحة النعلين بمواجهة الرمانة. عليها الانبطاح أرضا، الكوعان ملتصقان بالجسد والسبابتان على الأذنين، وإبقاء الفم مفتوحا. نعم، هذا هو التمرين بشكل تقريبي. وهاهم يعاودونه ثانية... هذه المرة أدت التمرين بشكل أفضل. ثم عاودوه ثالثة وهذه المرة مع أحد رجال الحماية المقربة الذي جذبها من ياقتها، ألقاها أرضا وأنبطح معهما. حارسها وضح لها إنها انبطحت باتجاه خاطئ، لحسن الحظ كان هو قد استلقى بينها وبين الرمانة.

أعاد لها هذا التمرين ذكرى فترة بعيدة حين كانت تلعب لعبة الشرطي واللص، عندما كان يتحتم عليها الاختباء وتفادي الوقوع في الشرك. في ذلك الوقت، كانت تلعب بين الجد وبين اللهو. أربعون سنة بعد ذلك تشعر بذات الإثارة، هذا الهلع المرح، ذلك أن هذا التمرين ليس إلا ساعة لهو، أليس كذلك؟ تؤدي التمرين بين اللهو والجد، عليها أن تتخيل أرض الحديقة التي صبغت ركبتها باللون الأخضر وقد أمست أرضا صلبة لشارع أو رصيف وأن تتصور ضجة انفجار حقيقي، وحولها نثار قطع معدنية وزجاج ودماء وذلك شيء لا مفر منه في مثل هذه الظروف. عندها يبدو الأمر أكثر عرضة للتصديق، ولكنها تشعر بموجة حارة من سعادة عنيفة، ابتهاج بدائي بكونها حية، سليمة على هذه المرجة المجزوزة لتوها في حديقة الدار.

30

هذا اليوم قتل أجنبي مقيم في البلد.

وقفت سيارة أمام منزله في الصباح. كان الوقت مبكرا. الحارس الليلي كان قد غادر لتوه. هبط رجلان من السيارة. حيا بأدب حارسا كان يقوم بنوبة الحراسة في المنزل المقابل. طرقوا الباب. فتح الأجنبي الباب بنفسه. ربما عزز ذلك احتمال معرفته الشخصية بهما أو ربما كان على موعد معهما، من يدري. رغم أن الشهود ذكروا انه كان يرتدي بيجامة النوم.

دخلا المنزل. وعلى الفور سمعت طلقات الرصاص. ولكن الأجنبي استطاع الهرب ويقال أنه خرج إلى الشارع وهو يصرخ: «لا، لا». بينما استمر الرجلان تسديد الرصاص باتجاهه دون أن يصيباه. ترجّل ثالثهم الذي ظل في السيارة في هذه الأثناء. الأجنبي بدا وكأنه قد فقد توازنه، ربما لأنه أصيب أو انه قد فقد خنعله، تعثّر وهوى أرضا. الرجل الثالث الذي هبط من السيارة عالجه بإطلاق رصاصة خلف الأذن وقتله.

لم تكن في عهدة هذا الأجنبي من «حماية مقربّة».

31

في أحد الأمسيات سمعوا ضجة مستمرة، غير مألوفة: طائرات بمحركات تتعاقب في السماء.

منذ وقت طويل لم تهبط طائرة مدنية على مدرج المطار. هذا المرور المفاجئ يثير الانتباه. في اليوم التالي شرحوا لها أن عشرات من طائرات البوينغ جلبت الأوراق النقدية للعملة العراقية الجديدة.

عشرات من طائرات البوينغ محملة بأوراق نقدية!

العملة القديمة سيتم تداولها لأسابيع أخرى ثم تختفي نهائيا. لن يتبقى منها سوى بضعة أوراق نقدية صغيرة عند بائعي الأنتيكات أو في داخل جارور كذكرى لحقبة ولّت حيث كان وجه الدكتاتور يزين حتى طوابع البريد، حيث يمكن رؤيته تارة مرتديا زيّ الأستاذ الجامعي، أو حاملا سماعة التلفون في مركز للاتصالات أو زوجا شابا في الأعراس أو طيارا في مطار محلي أو على صهوة جواد في مناطق البدو...

32

تفجيرات السيارات المفخخة تحدث عادة في الصباح. ربما لأنها تفجيرات انتحارية، يموت فيها مرتكبوها. ربما كان الطابع الديني لانتحارهم يتطلب نوعا من التهيئة الروحية، ربما لأن هؤلاء المولهين بالنقاوة يخشون حلول النهار وطلوع دنس الرغبات. لذلك يفضلون الانتحار صباحا. في بعض الأيام هنالك اثنان أو ثلاثة انفجارات تثير الارتجاف.

فريدة التي عاشت حروب أخرى، نصحتها أن لا تغلق النوافذ كليا لتجنب انكسار الزجاج.

33

تبدو العجلات وكأنها تتفادى ساحة دائرية متعرجة. ساحة مزدحمة بقواطع إسمنتية، بأكياس الرمل، بالأسلاك الشائكة، يبدو أنها لم تعد ساحة دائرية إذ لا يمكن الدوران حولها بسبب هذه اللافتة: «إذا ذهبت أبعد من هذه النقطة سترمى».

ذكرتها هذه اليافطة بصورة قديمة بالأسود والأبيض لتمثال الجمهورية في باريس، محاطا بالأسلاك الشائكة وبتلك اللافتة الكثيرة الدقة في الصورة: «من يذهب أبعد من هذه النقطة، سيُعدم».

للوصول إلى الجسر الذي تحيطه هذه الساحة ينبغي الاستدارة قبل الوصول إليها. وهذا ما فعلوه بعد عبورهم على الجزرة الترابية في الوسط وعكس ذلك عليهم الاستدارة في مكان بعيد وهم على عجلة من أمرهم. عادوا إذن إلى الساحة الدائرية نفسها أمام نقطة التفتيش هذه المرة. أخذ جندي يدقق بالهويات، هوية السائق، هوية رجل الحماية وهويته هو. أما هي فلم يطلب منها شيئا. هنا، لا أحد يطلب منها شيئا.

إنه جندي صغير السن بدا حائرا مثل مصاب بقصر نظر انتزعوا منه نظاراته، وقد أضحى ضائعا في لباسه المرقط. بحلق طويلا بالهويات بهيئة عاجز أو بهيئة من لا يفهم. إن كان لا يعرف القراءة، سيكون تعبير وجهه مختلفا. أهو خائف، تعب؟ شعرت أنه يتظاهر بالقراءة، يتظاهر

بتدقيق بالأوراق، وكأنه يكتفي بإضاعة قدر من الوقت، قبل أن يعيد الهويات ويشير لهم بحركة مرهقة إلى الطريق السالك.

عربتهم تصعد الجسر بسرعة بطيئة. يمرون بنقطة تفتيش ثانية لا توقفهم. الجنود مشغولون بتفتيش سيارات قرب كوخ مغطى بشبكة تمويه ومحاط بأكياس الرمل وكأن الجميع، الجنود والكوخ، داخل شبكة عنكبوت هائلة. حركات الجنود بطيئة لأنهم دون شك ينوءون بكل ما يحملون، أسلحة، خوذ، الصدار المانع للرصاص. يتنقلون وكأنهم رواد فضاء. هنالك العديد من النساء بينهم. وعلى الجسر ثمة دبابة عبوسة جاثمة. الجنود حولها يتهيئون لليل حراستهم.

في طريق العبور تلقي نظرة على دجلة. آخر التماعات الغسق تطفو على الصفحة الهادئة للماء.

في وسط النهر هنالك صف من الطوافات الخضراوات. في مكان آخر غير هذا المكان، تشير هذه الطوافات إلى حدود قناة أو مجرى مائي. أما هنا فليس هنالك من قناة، هذه الطوافات تشير إلى حدود «المنطقة الخضراء».

34

هذا الصباح، ثمة هالة واسعة من الغبار الأصفر البرتقالي تغطي كراسي الحديقة. إنها آثار القطرات الأولى من المطر الليلي. السماء غائمة والجو ثقيل بسبب هذه الرطوبة غير المعهودة. الذباب عنيف، كثير، وعنيد.

فصل يطرد فصلا آخر من فصول السنة. الزمن يمضي، شرائط الشمس تحتل كل يوم مساحة جديدة على البلاطات المحيطة بالمسبح. ترى القمر وكوكبة النجوم تنزلق من بقعة إلى أخرى في السماء وهاهي الآن تشعر بالأسف لأنها لم تهتم بما فيه الكفاية بعلم الهندسة.

35

منذ عدة أيام سمعوا في المساء صوت إطلاق الصواريخ. إنها تنطلق دائما من المكان ذاته، مكان قريب لمنزلهم، مستهدفة فندق الرشيد (لم يشاهدوا ذلك بأعينهم، إنما أخبرهم الحراس. لقد كانوا على السطح وأبصروا وميضها جيدا).

أصاب أحد الصواريخ الفندق، مدمرا عدة غرف على مقربة من غرفة مسوؤل أميركي كبير في زيارة لبغداد وقد شاهدوه عبر شاشة التلفزيون، أصفر البشرة، ملابسه محللة. لقد كان هلعا دون أدنى شك.

صديقتهم «عزة» التي تقيم في الفندق نفسه، كانت مسافرة وعندما عادت من السفر، في اليوم التالي، رأت الممر الذي يؤدي إلى غرفتها مخضبا بالدماء. في هذه الأثناء، سرقوا أغراضها.

بعد ذلك، أُخليت جميع غرف فندق الرشيد و«عزة» مثلها مثل الآخرين، سكنت في كوخ بدائي مثل الذي نراه في ساحات التعمير.

36

قامت باتصال هاتفي فوق السطح.

هنالك دائما هذا التردد الصوتي لصوتها والذي تسمعه معادا والصوت القادم من هناك، من مكان ما هناك، على مسافة آلاف الكيلومترات. في البدء ضايقها ضجيج دبابة مرت قرب المنزل. أحست بارتجاف بلاطات الشرفة وبعدها بقليل (أكان ذلك مرتبطا بحضور هذه الدبابة) سمعت صفير إطلاق صاروخين قريب جدا مثل شهاب طرقات سهام اللهو النارية. سمعت صوت انفجارات قريبة، حاولت أن تطمئن محدثها الموجود على بعد آلاف الكيلومترات والذي يتساءل، قلقا عن هذه القوقعة المسموعة عبر الهاتف. لا شيء، ليست هنالك خطورة.

هنالك نوع من الضباب حولها، نثار قطع صغيرة (من أي مادة؟) تسقط من السماء وفي الهواء تنتشر رائحة ثقاب يشتعل. وهي تعيد القول: لا شيء، ليس هنالك أمر يثير القلق، ثم تلتحق بالسلم الذي يوصل إلى داخل المنزل.. لم أعد أسمعك... لم أعد أسمعك...

عثر الحارس في زاوية من الحديقة على مخروط صغير من المعدن، ثقيل، موشوم بكتابة روسية. كان المخروط حارا عندما أراد التقاطه. إنه (شرابنل).

37

إنه يوم جميل.

لقد قررت أن تقضي وقت الظهيرة في الحديقة.

أرادت أن تنسى حضور أحد الحراس الذي يقوم بنوبة الحراسة فوق السطح. الشمس بهية. سلسلة من الغيوم البيضاء تظهر ثم تختفي في الأعالي. يصل إلى سمعها صوت ورقة مدعوكة من شجرة كبيرة من الحديقة المجاورة. سرب طيور يمر بالسماء. يعيد لها هذا الجو، ذكرى يوم أحد هادئ في بلادها. حتى ضجة الهليكوبتر البعيدة يمكن أن تتنسب لهدهدة مسالمة لطائرة خطوط مدنية في سماء صيفية.

هنالك الكثير من الذباب الذي يذكرّها بالريف عندما كانت تمشي في طريق محاذ لحقل، عندما يضج العشب بصوت الحشرات، حين ينبغي الحذر من أن تطأ قدمها كومة روث.

38

استلمت كتابا جميلا وهي الآن تطوي صفحاته لترى الصور الفوتوغرافية، إذ ستقرأ النص فيما بعد. إنها صور لفترة بعيدة تستطيع فيها امرأتان أن تسافرا إلى أفغانستان وإلى بلدان أخرى وتتنقلا على حصى الطريق الصحراوي[*].

إنه يوم من أيام شهر تموز عام 1939، في مكان ما من إيران. ركنت السيدتان سيارتهما الفورد قرب خان مهجور يمكن ملاحظته في يمين الصورة، ظله يلقي خطاً عريضاً غامقاً يفصل الصورة افقيا. إنه وقت هبوط المساء.

إحداهن تتحدث مع رجل، ربما كان راعي غنم، بدا وكأنه قد خرج من باطن الأرض، في هذا المشهد الصحراوي، بينما الأخرى، رفيقتها، هي التي تلتقط الصورة. خلفهما تمتد تلال جرداء مجعدة.

وهي تتصفح الكتاب يتملكّها أسف ملتبس: هل يمكن السفر في هذه

---

[*] الكاتبة تشير هنا إلى رحلة الكاتبتين السويسريتين إيلا مايار وزميلتها وآن- ماري شفارتسنباخ التي كتبت رحلتها للشرق الأوسط في نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينات من القرن الماضي. كتاب شفارسنباخ «شتاء في الشرق الأوسط» يتضمن أربعة فصول عن العراق. وكتاب الصور الذي تشير إليه هورم هو كتالوك المعرض الفوتوغرافي الذي أقيم في متحف الأليزيه المختص بالتصوير الفوتوغرافي في مدينة لوزان.

الحقبة القبيحة؟ إنها في العراق ولكنها لا ترى شيئا منه، وربما سوف لن ترى منه شيئا أو ربما القليل، القليل. إنها تجربة دون شك ولكن أين فكرة السفر في كل هذا؟

39

في إحدى الأماسي جاءهم زائر لم يكن بالحسبان: توقفت أمام المنزل دبابة هائلة. برجها يوازي نافذة الطابق العلوي. طرق الباب ثلاثة جنود أمريكان. أو بالأحرى اثنان ذلك أن الثالث لم يكن يرتدي الزيّ العسكري، إنما بنطلون جينز وأحذية رياضية وفانيلة وقبعته الكبيرة تتدلى على ظهره. ربما كان المترجم. أنهم صغار السن وبالأخص الجنديان.

في لحظة دخولهم، أخذوا يمسحون غرفة الجلوس بنظراتهم، نظرة يتداخل فيها الحماس والرغبة واليأس «أوه» يرددون وهم يهزون رؤوسهم كما لو كانوا غير مصدقين لوجود أشياء كهذه. ينظرون للأثاث، للبيانو، ثم رأتهم مأخوذين بزاوية البار، زاوية تحوي، كما في الأفلام، قناني كحول بجميع الألوان، قنان متوهجة، مرحة تزيد أعدادها المرآة القابعة خلفها. وهنا في هذا الصالون، تصدمهم نعومة الحياة المدنية، لأنها حياتهم المدنية السابقة وقد حرموا منها الآن (إلى متى؟). إنهم محكومون الآن بالعيش في قبح العالم العسكري: تناول قصعة المعسكر، وارتداء الزيّ المرقط البني والرملي، حتى أجل غير مسمى. لقد تعودوا على ذلك ولم يعد باستطاعتهم رؤية قبحه، حتى هذه اللحظة التي وجدوا فيها أنفسهم فجأة وسط هذا الصالون. ما أشد قسوة اللقاء بين حياتين، حياتهم الحالية والأخرى، الحياة الحقيقية أو تلك التي يعدونها حقيقية، حتى أنها شعرت بالارتباك.

تخلصوا من متاعهم. الرشاشة والصدار المانع للرصاص سقطا بقوة على السجادة، وقد سمحوا لأنفسهم بالاستلقاء على الكنبتين القريبتين، كما لو كانت أجسادهم ثقيلة الحمل. أحدهم أخذ بالحديث، كان بعمر أبنها، شاب جميل، يبدو ذكيا، ربما كان من أولئك الذين جاءوا للعراق لدفع أجور دراستهم. الجندي الآخر لم ينطق بكلمة، نظرته الزرقاء تسللت بشكل لا يقاوم نحو البار. الثالث الذي يرتدي الحذاء الرياضي يعلك اللبنة بإصرار وهو يبحلق بالجدار المقابل. الجندي المتكلم يشرح لها بضجر إنهم جاءوا ليتحروا عن قذائف الصواريخ التي انطلقت من هذه المنطقة في الليالي السابقة. يتجه للحراس، يسألهم أسئلة غائمة، دون أن يهتم كليا بأجوبتهم وكأنه يائس مسبقا. إنه في العراق منذ ستة أشهر وسيبقى لمدة ستة أشهر قادمة. يقول إنهم يتوقعون هجوما كبيرا في السبت القادم. اسمه المدون على لباسه ينتهي بـ«ووك»، لم تستطع قراءة الحروف الأولى المختبئة تحت طي القماش.

تركوا الكنبة بحسرة، حسرة ألم تقريبا. الجنديان ارتديا ثانية الصدار المانع للرصاص. بدلاتهم تحتوي جيوب عديدة مليئة بأشياء متعددة وفوقها تتدلى قربة الماء والرشاش الذي يحملانه والذي يبدو وكأنه يزن أطنانا. تمنت أن تقول لهم، دعوا كل هذا واطلبوا من زملائكم أن يركنوا الدبابة في مكان آخر وتعالوا لتشربوا كأسا. سأفتح لكم علبة من لحم البط المحفوظ...

لكنهم غادروا. ضجة الدبابة تباعدت ثم اختفت.

الحارس الليلي جاء ليقول لهما بصوت خفيض أن أحد الجيران قد أُختطِفَ. المختطفون طالبوا بفدية قدرها مئة ألف دولار.

40

انشغلت الآن بقراءة المجلة الأدبية التي كانت قد اشتركت فيها هناك.

في ذلك المكان البعيد تحل كتب جديدة محل كتب أخرى في واجهة المكتبات. أما هنا، فهي تكتفي بالكتب التي جلبتها معها. ليس هنالك من عجلة في الأمر، أمامها متسع من الوقت.

تستغل هذا الوقت لتقرأ الكتب الكبيرة.

على لسان راسكولنكوف، تدون هذه العبارة:

«لا أفهم بشكل دقيق لماذا يعتبر قصف مدينة محاصرة بالقذائف، أكثر مجدا من قتل إنسان بفأس».

41

كانت في المسبح عندما جاء العمال كي يصلحوا مشتمل الحديقة لتهيئته كمأوى لرجال الحماية. رأتهم يمرون تباعا مطأطئي الرأس حتى لا يعطون انطباعا بإطالة النظر إليها.

حتى نهاية البناء سيسكن اثنان من رجال الحماية في المنزل. إنهم يمضيان جزءا من الليل على السطح أو في الحديقة. يحادثان الحراس ويلبثان ساعات طويلة داخل المنزل. يشاهدان التلفزيون أحيانا وأحيانا يقرآن بضجر على الكنبة التي تطل على باب غرفتها. عندما تمرّ ينهضان على الدوام رغم تأكيدها بعدم جدوى هذا الأمر.

في أحد الأيام، فاجأت احدهما وهو ينظر لساق امرأة مغطاة بالدانتيل الأسود. أصابعها تحل بشهوانية وببطء رباط الجوارب، وهو مشهد إثارة بدا لها قديما. تحاشت النظر إلى شاشة التلفزيون كي لا تربك المسكين الذي حاول أن يغير القناة، ولكن الريموت لم يطاوعه. تصورت الساق اللعينة وهي تواصل التعري من جوربها الأسود، وهو يسرق نظرات قلقة إلى الشاشة في الوقت الذي يبادلها الكلام، وفي النهاية رأت مشهد لبوة وصغارها، سرب طيور نحام وردية اللون، تمرح على الشاشة، إنها قناة تلفزيونية أخرى. وقد عرفت الآن لماذا يشاهدان بشكل دائم أفلاما وثائقية عن الحيوانات.

42

جاء سمير لكي يدوزن البيانو.

شعره معقوف كذيل حصان وقميصه مفتوح على شعر صدره حيث يتدلى صليب صغير. لقد هاجرت عائلته ولم يتبق لديه من مورد.

سمير عازف بيانو رائع. يعيش في فندق حيث يعزف مساءا في صالة الطعام، بانتظار زمن أفضل. لقد ترك بيته الذي دمر خلال الحرب. المرة الأخيرة لتي نام في بيته، أضطر لإطلاق الرصاص من بندقيته كي يطرد اللصوص. ولذلك فضّل السكن في الفندق رغم أنه ليس مكانا أمينا هو الآخر.

عند تناول الغداء حدثهم عن ذكريات الحرب المريعة على الجبهات العراقية.

لقد أوقفوه يوما في الشارع واصطحبوه. كان عليه أن يقدم دليلا على الولاء لوطنه. أن يثبت ما إذا كان مع وطنه أو ضده! وما عليه في هذه الحال سوى أن يوقع على الورقة. لم يكن لديه خيار آخر، لقد وقّع كـ«متطوع» للذهاب إلى الجبهة. اصطحبوه على الفور ليتدرب في معسكر تدريبي لفترة قصيرة ثم أُرسل بعدها إلى الجبهة.

في تلك الفترة كان يحمل دائما سكينا ويتسلى في أوقات فراغه بشحذ نصلها حتى أصبح قاطعا مثل شفرة الحلاقة.

في إحدى الليالي وقد كان فيها حارسا، لم يستطع مقاومة النوم.

في الحلم جاءه صوت قائلا: «استيقظ، استيقظ». وعندما استيقظ، رأى جنديين إيرانيين يقتربان منه. لم يكن لديه الوقت لإلتقاط سلاحه الذي سقط في الوحل. راح يصرخ. هرب احد الإيرانيين وألقى الثاني بنفسه عليه وبيده سكين. امسك هو بسكينه لكي يدافع عن نفسه ونحر عنق الإيراني وتدفق دمه عليه. عندما حلّ النهار، رأى وجه الشاب المجهول الذي قتله وهو وجه ظل يلاحقه إلى الأبد.

كيف استطاع وهو الموسيقي، الفنان، قتل شبيهه، هكذا، وجها لوجه؟

43

لم تستطع النوم ذلك المساء، عيناها جاحظتان في عتمة الغرفة شبه المطبقة. تسمع تبادل إطلاق نيران عنيف، تاتاتاتاتا من جانب، ويرد عليه الجانب الآخر، تاتاتاتاتا!

زوجها نائم قربها، وهي لا تتجرأ على إيقاظه. تصغي السمع ويتجدد إطلاق النار: تاتاتاتاتا!

تحس بضربات قلبها وتتساءل ما الذي حدث للناس في المكان الذي أُطلقت عليه النيران، هل إ أصيبوا؟ هل ماتوا؟ تتخيل العائلات المنكوبة مرة أخرى. تنظر عبر النافذة: الحارس الليلي يذرع المكان جيئة وذهابا، ياقته مرفوعة، لتصدّ الريح. كل شيء يبدو طبيعيا.

في اليوم التالي أخبروها أن مشجعي الفريق الدولي لكرة القدم احتفلوا بفوز المنتخب العراقي بهدفين مقابل هدف واحد.

44

كتب لهم عالم لاهوت يعمل على انجاز ترجمة لمخطوطات سريانية، طالبا صورا لرسائل تيموتيه الأول للخليفة المهدي، ذلك أنه لا يستطيع المجيء لبغداد.

مهمة مثل هذه المهمة، تناسبها تماما.

ذلك يتطلب بالطبع بعض التدبيرات الأولية. عليها في البدء، الاتصال بالدير حيث توجد المخطوطات، ثم يذهب الحراس لاستكشاف المكان ومن ثم الذهاب بسيارتين وبرفقة أمينة.

وهاهم قد وصلوا الدير. جاءت هي بحامل الكاميرا وبمصباح جيب وبعلبة الضوء. القس المسؤول عن المكتبة رجل جميل الملامح، مبتسم. استقبلهم في غرفة الاستقبال وهي صالة واسعة قبيحة لانعدام الذوق الرفيع أو ربما كان ذلك مقصودا. ربما أرادوا بشكل واع تقبيح المكان خوفا من الاستسلام لغواية ديكور أكثر إثارة: الصالة مضاءة بالنيون بشكل حاد. المقاعد مغطاة بقماش ردئ تملأه أشكال نباتية تتسلق الحيطان. في الزاوية هنالك إطارات تحمل صورا للبابا وقديسين معممين بهالة من الضياء. جلبوا لهم قهوة ووضعوها على منضدة خفيضة. من مكانها رأت حيزا من رواق عار. كل شيء في الدير يبدو مدرسيا وشنيعا. وليس هنالك من مَنْشَب تيار كهربائي لتشغيل

مصباحها. دعاهم القس لدخول إلى مكان أكثر رحابة، صالة المكتبة. جدران الصالة تحتلها خزانات رفوف مزججة ومليئة بالمخطوطات. رسائل تيموتيه[*] هي الأكثر قيمة من بينها ولكنها محفوظة في ملف مثل ذلك الذي نستعمله لحفظ الفاتورات القديمة.

بدأت عملها بشيء من الرهبة ذلك أنها تقوم بتصوير هذه المراسلات الثمينة التي سيترجمها عالم اللاهوت استنادا لصورها، ولكنها نسيت ذلك في غمرة العمل واشتغلت لفترة ساعتين في الحرارة الباهرة لمصباحها.

[*] تيموتيه الأول هو البطريرك النسطوري الذي دعاه الخليفة المهدي عام 781م لحوار ديني حول المكونات الأساسية في المسيحية والإسلام.

45

أقاموا دعوة غداء لصديقتهم «عزة»، لكي يساعدونها على احتمال بؤس مكان سكنها الجديد الذي أقامت فيه منذ أن أُخلي فندق الرشيد.

تناولوا الغداء في الخارج، ضوء شتائي رائع وشمس بيضاء، تعمي العيون، ذكرتهم بأعياد الميلاد في سوريا. «عزة» فرحة لخروجها من «المنطقة الخضراء». البعض من سكان الأكواخ المؤقتة التي وضعت تحت تصرف زبائن فندق الرشيد يسمي المنطقة الخضراء : «منطقة الأحلام». ليس في كوخها سوى سرير ودوش استحمام، وهي ليست متأكدة من البقاء هنا حتى نهاية عقدها الذي سيستمر لمدة سنة واحدة. تبدي إعجابها بالمطبخ فهي لم ترَ مطبخا منذ ستة أشهر!

شربوا بكثرة. شمبانيا، نبيذ أبيض، نبيذ أحمر، ومن ثم القهوة والكونياك الذي أخذ لونا جميلا في الشمس. «عزة» سردت لهم كيف أصبحت أميركية. لقد كانت فتاة صغيرة مدللة، نشأت في وسط غني وسعيد في حي هيليوبوليس في القاهرة، حتى اليوم الذي أعرب فيه أهلها بنيتهم لتزويجها من رجل لا تعرفه. أعطوها مهلة أسبوع للتفكير، إما أن تنصاع لرغبة أهلها أو أن تكتفي بتذكرة ذهاب إلى الولايات المتحدة الأميريكية، شرط أن لا يرونها بعد ذلك أبدا. كان لها من العمر ستة عشر عاما. اختارت تذكرة الذهاب إلى أميركا ولم تتصل بأهلها منذ ذلك الوقت.

كانت متأثرة وهي تسرد ذلك على مسمعهم، حتى انهم اضطروا لشرب كأس كونياك آخر.

منذ الصباح سمعت انفجارات حزينة مثل سيل من الأصوات الكئيبة: الاميركان يدمرون مخازن السلاح.

46

عطلة عيد الفطر مدتها خمسة أيام. المستخدمون غائبون، المنزل هادئ. إنه الشتاء. هنالك ضباب ومقياس الحرارة يشير إلى ثمان درجات. المسبح أُفرِغَ من مائه. في قاعه يمرح الغبار والأوراق الذابلة. في الأيام الثلاثة الأولى من العيد هطل المطر من دون توقف. تحت الشقّ الطويل الذي يمر بسقف مختبرها وضعت آنية لتلتقط بضعة ليترات من الماء الملون.

ما هي حكاية هذه الشقوق؟ هنالك شقّ كبير في سقف المطبخ. حين ينطفئ الضوء يمكن تمييز الصدع بشكل واضح عبر النور الشفاف الوافد من النافذة والذي يرسم هيئة الجرح المحاط بنثار الجبس، كما لو أن سكة محراث قد حرثت صفحة السقف. إنها الحرب دون شك التي هزّت الأبنية رغم أن هذا الحي سلم بأكمله مثلما هي حالة المدينة كلها. الاهتزازات والتفجيرات المتواصلة، الطيران الواطئ لطائرات الهليكوبتر. كل ذلك ساهم دون شك بزيادة عدد الشقوق. لاحظت الآن صدوعا في كل مكان وكأنها تكتشف نملا في نشارة خشب... رأتها وهي تملأ الجدران، وإن بشكل غير واضح كليا. العديد من هذه الشقوق سطحي ولا يمس دون شك سوى طلاء الجدران.

في ليلة سابقة، سقط جزء من إفريز الملاط. في الصباح، وجدت أجزاءه محطمة على بلاط الأرضية.

47

تقع آثار بابل في منطقة عسكرية تحت السيطرة البولونية، على بعد تسعين كيلومترا جنوبا. ذهب رجال الحماية لوحدهم لاستكشاف المكان وتحديد أفضل الطرق للوصول.

هذه هي النزهة الأولى التي تقوم بها خارج المدينة منذ وصولها إلى البلد قبل شهرين. هنالك الكثير من الزحام المروري، وعرقلة في السير لعبور المدينة.

أمطرت السماء في الأيام الثلاثة الماضية. الوحل والبقع المائية منتشرة. دكاكين بائسة وتلال قمامة تنعكس أشكالها في المستنقعات السوداء التي يعبرها الناس على درب مرتجل: طابوقة هنا وطابوقة هناك. يقفزون من واحدة لأخرى. حواف ثياب النساء ملطخة بالوحل.

مروا بمقبرة سيارات هائلة، الحديد الصدئ متراكم، ويمتد مسافة كيلومترات. من وقت لآخر ترى على جانب الطريق دبابة متروكة مثل حيوان بحري ميت، برجها الصدئ مائل للجانب، ملويّ مثل تكشيرة ألم، مما يعيد لذاكرتها صورة أجساد تفحمت بعد ضربة جوية.

ملابس الفتيات الصغيرات لائقة، يرتدين ثيابا جديدة ثياب العيد. صادفوا العديد من السيارات التي تنقل التوابيت على حاملة الحقائب. أراجيح صدئة مثبتة على أرض ترابية موحلة من دون أثر للخضرة، الأرض

لها لون حجر البركان، قمرية المظهر، وظلال الأطفال على الأراجيح ترتسم في السماء الرمادية.

قبل الدخول لموقع الآثار أو المعسكر بالأحرى، على طول الطريق يقف رجال وصبيان، ينتظرون.

تبدو بابل قبيحة بهذه الجدران الجديدة. المدخل مزيّن برسوم بدائية بألوان صارخة تُمثل حمورابي أو نبوخذ نصر، رسوم حديثة العهد رسمت لتغطي التصاوير الشخصية لذلك الذي أراد أن يكتب أسمه في السلالة المجيدة للبناة الكبار: في جميع الجدران ركبت آجرة تحمل كتابة لتمجيده.

أضاعوا بعضهم ثم التقوا في متاهة من مشكاة مضللة سوداء كليا تنبعث منها رائحة البول. تنزهوا في الفناء الفارغ، إنهم الزوار الوحيدون. القصر الكبير الذي يهيمن على الموقع يشبه قبر فرعوني مستطيل. قبل سنة لم يكن أحد يستطيع أن يصوب آلة تصويره باتجاه هذه الناحية، حتى السائر يتوجب عليه أن يدير نظره عنها. الآن تغير كل شيء. سيارات عسكرية تقف أمام القصر.

هنا وهناك تنمو أشواك العاقول التي تلتهمها الجمال. يستفاد منها لتبريد دواخل المنزل في الصيف: يضعونها أمام الشبابيك ويسقونها بالماء، لتجلب البرودة.

هاموا في المعبد الذي أُعيد بناؤه بشكل جزئي بلبنات من الطين المجفف المخلوط بالتبن، الجزء القديم الذي عبر العصور أستخدم ذات الطريقة. صعدوا سلالم المسرح وهناك التقطوا أنفاسهم وأطلوا على المعسكر بأكمله، رواح ومجيء العربات، الخيام، الأكواخ.

قبل أن يغادروا جابوا سوقا صغيرة تعرض كاسيتات، ملابس قديمة، خوذ الدراجات النارية، حقائب عتيقة، أشياء جلدية مريعة، أدلة سياحية

قديمة بأوراق مصفرة، لوحات محلية بائسة وأفرشة كبيرة صارخة تمثل العلم الأميركي.

انتقلت من محل لآخر، يائسة من العثور على شيء يشترى، متفادية نظرات الباعة التي تتبعها بعيون متوسلة. ذلك أن الزوار نادرون. في احد المحلات الأخيرة عثرت في النهاية على بوصلة انكليزية الصنع، في أي من الحروب تم انتشالها؟ أثر جاد وثقيل في اليد. ولكي تحصل على درجة الاتجاه المطلوب، ينبغي أن تضرب العدد بستة.

قبل أن يستقلوا السيارة تناولوا طعامهم أمام مدخل المعسكر على حافة الرصيف مثلهم مثل أولئك الرجال والصبيان الواقفين والذي كانوا وما زالوا بالانتظار. ما وراء بابل يمتد الطريق، خاليا تماما. لا أحد يمضي فيه وهم أيضا يغادرون، تاركين الطريق الفارغ ينبسط بين النخيل ليغط فيما بعد في الليل الهابط.

48

دعوهم للعشاء في حي آخر بعيد عن حيهم. موعد العشاء هو الساعة الثامنة وهو وقت متأخر، متأخر جدا إذا ما أخذنا الظرف بالحسبان. الظرف الأمني أعاد إلى الصدارة فكرة العشاء المبكر.

وصلوا مبكرين. الخادم أدخلهم في صالون تنبعث منه نار المدخنة. ليس هنالك من كهرباء، نار المدخنة وضوء الشموع ينيران الغرفة. وصل المدعوون الواحد تلو الآخر، امتلأ بهم الصالون. شاب مضطرب يريها مسبحة ويشيد بمجموعته الخاصة التي يحتفظ بها في بيته، وكذلك مجموعته للطوابع البريدية ومجاميع أخرى من كل نوع. هو الوحيد الذي لا يملك حماية مقربة. يقول لها: نحن جميعا بحماية الرب. أرادت أن تقول دون أن تفصح عن تفكيرها إن حماية الرب لا تمنع حماية رجال مدربين بشكل جيد.

سيد المنزل كان مشغولا. وصل البيت قبل الساعة التاسعة بقليل ودعاهم إلى صالة الطعام التي تضيئها بتقتير ثريا فضية مثبتة وسط المائدة. شرشف المائدة يبدو رطبا، الخادم حين يمر يلقي بظلال راقصة على الجدار. يأكلون فخذ خنزير بري صاده صديق لهم. تبدو هذه الوليمة وكأنها عشاء فرسان في قلعة باردة. البلد الذي يحيط بهم يبدو غامضا كل الغموض. حيطان المنزل تحمل آثار صواريخ، ولكن ذلك لا يؤثر بمزاج سيد البيت، أكثر الآثار جدة يعود تأريخه لليلة الماضية.

غادروا عند منتصف الليل، وهو وقت متأخر جدا للسياقة في هذه المدينة. كانت منزعجة لبقاءهم طيلة هذا الوقت. تفكر بالسائق الذي سيعود لبيته، زوجته قلقة الآن دون شك.

هنالك ضباب كثيف والسائق يعاني صعوبة من إيجاد طريقه فيه. الشوارع فارغة تماما، لا يصادفون غير بضعة كلاب ضالة تشم كومة القمامة وقطط تسرع بالهرب أمام ضوء مصباح السيارة.

49

صباحا، كانت تكتب على طاولتها، حين فاجأتها فريدة وهي تدخل غرفتها. تطلب منها أن تأتي فورا حتى كأنها تجرها من يدها، جرا وهي تردد: «ماكو شي»، ليس هنالك من شيء. ذلك يدعوها للضحك، بالطبع هي ليست بلهاء: «لا، أكو شي». فريدة تجرّها حتى المشتمل الخشبي في الحديقة، الذي يتناوبون لإصلاحه كي يسكنه رجال الحماية. رائحة الطلاء الحديث قوية، وهو خال من الأثاث. آرام يأتي راكضا بكرسي. وهاهي الآن جالسة وسط الغرفة العارية، فريدة واقفة قربها تردد: «ماكو شي». عجلة مشبوهة توقفت قرب منزلهم: محركها يشتغل والمفاتيح بداخلها وليس فيها من أحد ... إنه إنذار خاطئ. لم يفكروا بحماية أنفسهم، أما هي فقد حموها كما لو كانت آخر ذرية لسلالة في طريقها للانقراض...

50

مشتمل رجال الحماية يوشك على الاكتمال وينبغي الآن تأثيثه. يطلبون منها أن تأتي معهم. من المتعارف عليه أن تعطي المرأة رأيها في ما يخص أسئلة مثل هذه.

وهي الآن في مخزن الأثاث بين ستة رجال. يتنقلون بين الأثاث، في الممرات الفارغة، يختارون دون اهتمام أثاث لغرفة عريسين: غرفة نوم، دواليب، أسرة، صوان، طاولة مطبخ، أفرشة، مخدات وأغطية سرير، كراسي، ثلاجة، ماكنة غسيل...

عائلة غريبة تلك التي يشكلونها هنا ...

51

إنهم الآن في الصالون الصغير الأكثر دفئا من الصالون الكبير في فصل الشتاء. فصل فيه ينكمش الفرد على نفسه في زاوية، بينما الستارة مسدلة.

قرآ قليلا قبل النوم، ارتشفا جرعات صغيرة من شاي الأعشاب، عندما سمعا صوت ضجة متواصلة، ضجة سلاح غير معهود ومن دون شك شديد القوة، أكثر قوة من ذلك الذي يسمعانه عادة، ذلك يعني بتعبير أكثر واقعية أشد فتكا، نظرا لبعضهما قلقين.

تتساءل عن نوعية هذا السلاح الجديد بهذا النفس الطويل، قلبها يدق. ثم تأتي ضربة أخرى! ولكنهما أبصرا هذه المرة ضوء البرق عبر ستار النافذة وما لبثا أن سمعا مطر العاصفة يرتطم بالبلاط، في الخارج.

52

سحلية سكنت في طيات الستارة وهاهي الآن تتنزه عند السقف وفي أعالي الجدران. في المساء تترك لها المصباح مضاءا لكي يجذب الحشرات التي ستكون وجبة عشاؤها. تمضي السحلية مساءها وهو تترصد قرب المصباح.

إنها صحبة لطيفة. حين تدخل الغرفة، كانت تبحث عنها في المكان الذي وجدتها فيه ليلة البارحة.

ستلبث هنا طيلة الشتاء، ثم تمضي إلى حيث أتت.

53

انغمرت بقراءة رواية «قصة».

منذ الصفحات الأولى أدهشتها لغة الكاتب. كانت قد اشترت الكتاب من مكتبة في مكان ما من وسط أوربا في فيينا دون شك، ووجدت نفسها تقرأه في مقهى في براتسلافا حيث كانت على موعد مع زوجها (هل كان ذلك في أوستي ناد لابيم؟). الصالة كانت مليئة بأُناس يحتسون البيرة ويلعبون الورق وهي كانت غاطسة في «قصة»، متحمسة، مفتونة، يمكن رؤية هذا الشعور على ملامحها، ذلك أن الرجال في المائدة التي تجاورها سألوها ما إذا كان ما تقرأه جيدا وقد ضحكت وقتها، ورفعت بنصرا أكيدا، بشيء من الرأفة لهؤلاء الناس، إذ كانت تقول لنفسها أن أي شخص منهم، حسب اعتقادها، لم يقرأ «قصة» وسيموتون يوما دون أن يقرءوا سطرا من كلود سيمون، من غير دراية ولا معرفة بهذا الكاتب. كانت ممتنة لهذا الامتياز.

تعيد قراءة «قصة»، ومن وقت لوقت تسمع خشخشة جهاز الاتصالات الذي يعلمهم برواح ومجيء السائقين والذي يطلع منه أحيانا صوت جشأة غريب.

54

زاروا مشتلا لشراء بعض النباتات، هنالك العديد من المشاتل في الشارع نفسه، الواحد قرب الآخر، كما لو كان الشارع محاذيا لحديقة هائلة. توقفا عند أحد المشاتل الذي يعرف صاحبه سائقهم. وتنزها طويلا في الممرات بين أشجار الدفلى والموز والنخيل والورود والأزهار الموضوعة في أصيص. دخلوا في وأمٍ تنبعث منه رائحة الأرض الرطبة ورائحة حيوانية. اختارت هي يُكَّة لمكتبها. الجو جميل جدا وكثير البرودة أيضا. يمكنها أن تتنزه ساعات طوال في هذه الحديقة، تذكرت حديقة جدتها، كان أحد أجدادها البعيدين بستانيا. وهاهي تكتشف في نفسها هذه الهواية المتأخرة. المشي في هذا المشتل يشبه التنزه في غابة، وذلك شيء مستحيل هنا لانعدام الغابات ولاستحالة التنزه. ولكنها وهي تمشي في الممرات، تحت ظل الأوراق المتقطع، تجد تلك اللذة المنسية للطبيعة المفقودة، مثل مريض يتعافى. ربما لأن المكان شبه محرم، فمن الذي يفكر بإرسال سيارة مليئة بالمتفجرات باتجاه النبات؟

55

على ضفة النهر هنالك مطاعم يمكن فيها تناول السمك المشوي. في خارطة المدينة يشار لهذه المطاعم برسوم موجزة لأسماك صغيرة على حافة تعرج نهري أزرق. المطعم الذي كان يرتاده الأجانب مغلق. أو بالأحرى مفتوح، كما يقول الحارس، ولكن ليسه فيه من أطعمة. مطعم آخر يمكن أن يعوض هذا الخلل.

ليس هنالك من مشروبات كحولية، جميع النساء محجبات. شرفات بطوابق تتعاقب حتى حافة النهر. يختاران الشرفة الأكثر قربا إلى النهر. ترّفُ عيونها بسبب أشعة الشمس. أحذية النادل الصغير تحمل آثار الطين وجاكيته يبدو مغبرا في ضوء الشمس. في النهر هنالك قوارب وصيادون يرمون بشباكهم. رجلان يجلسان في مراكب بمحركات مربوطة بطوافة المطعم ينتظران الزبائن الذين ينوون القيام بجولة نهرية. قطط تتنقل بين الموائد، تجذبها رائحة السمك. البعض منهم يطعمها والبعض الآخر يطردها.

أخذ الجو يبرد ما أن اختفت الشمس وراء سقف المطعم.

سائقهم سني المذهب، يجول بهم في الأعظمية، الحي الذي يسكنه، وهو حيّ قديم وحيوي، جانب منه سكني والآخر تحتله غابات نخيل وبين الجذوع ثمة عشب أخضر، برّاق في ضوء الشمس الخفيضة الحاد، مثل

خضرة حقول الرز. هنالك منازل عتيقة أيضا وعلى جدران البيوت تنتشر آثار معركة حديثة العهد. لا يحبون قوات الاحتلال في الأعظمية.

ولكي يمنح التوازن حقه، يأخذهم السائق للكاظمية، الحيّ الشيعي، في الجهة المقابلة من النهر مستقلا الجسر الذي يفصل بين «المؤمنيين وغير المؤمنيين»، وهي تسمية يتفق عليها الجميع في الضفتين المتقابلتين.

56

ذات مساء سمح لهم أفراد الجماية بالمشي في الشارع التجاري من حي الكرّادة، نصف ساعة أو حتى ثلاثة أرباع الساعة لا أكثر، وهي سعيدة بفكرة التنزه تماما مثل طفلة.

إنه وقت حلول المساء ولكن الوقت ما زال مبكرا، هذه الأيام هي أقصر أيام السنة. لم يتوقفوا أمام الواجهات الزجاجية، إنما اكتفوا بالتباطؤ لفترة زمنية قصيرة تكفي لتكوين فكرة عن ماهية البضائع المعروضة: الملابس، الطناجر، مواد الكتابة، المواد الكهربائية، الحقائب، الأحذية العود والكمان، بائعي الكباب، أكوام السجاد الصناعي ومواد الإضاءة. أحد رجال الحماية يمشي أمامهم وآخر خلفهم. الثالث يحرس السيارة. إنها فترة هادئة بشكل نسبي. سكان «الكرادة» يعرفون رجالهم، الكثيرون يلقون عليهم التحية. يدخلون في محل لبيع الحلويات ويشترون البقلاوة. أحد رجالهم يأسف لعدم شراءه أصابع الشوكلاته التي ينصحهم بتذوقها. مهنته تتطلب أن تكون يداه طليقتان. إذا كان ذلك هو المانع، يمكنها أن تحمل علبة الأصابع بدلا عنه.

اشتروا مصباحا نفطيا ثانيا وفي طريق العودة من هذه النزهة في المدينة، تولد لديها انطباع بأنها قامت بمغامرة مثيرة وخطرة.

57

أرادوا زيارة نصب الشهيد، أو على الأقل الاقتراب من بصلتي السيراميك الأزرق الفيروزي. غير أن المنطقة التي يوجد فيها النصب تحولت إلى منطقة عسكرية. وبانتظار أن تأتيهم الموافقة لدخول المكان برفقة عسكري، سمحوا لهم بإدخال سيارتهم في الجهة الأخرى من الحاجز. وهاهم الآن تحت الشمس، ينتظرون بصبر.

هنالك دبابة كبيرة صدئة وكأنها قد تحولت هنا إلى جزء من الديكور العام. أرادت تصوير الدبابة وقبل أن تفعل ذلك، طلبت الإذن من الجندي الذي يحرس المدخل. هز الجندي كتفيه بلا مبالاة: «بالطبع». إنه شاب صغير السن، مهذب. يود مساعدتهم ويلحّ باستخدام جهاز اللاسلكي لكي يحصل على جواب واضح بصدد هذه الزيارة. الساعات تمضي وهاهو وقت الغداء. أخرج الجندي سندويجا، تناول لقمة منه وفي الوقت نفسه حاول جاهدا الاتصال بأحد المسؤولين كي يسمح لهؤلاء الأجانب للاقتراب من نصب الشهداء. شعر بالحرج، وابتسم لهم ابتسامة اعتذار، يبدو إن الفوضى هي السائدة في هذا المعسكر.

تأتي سيارة جيب من ناحية النصب، الذي يبعد مسافة بضعة مئات من الأمتار، ولكنها لم تأت بالشخص الذي سيسمح لهم بالدخول، إنما هو جندي شاب بملامح أنثوية يصطحب شيخا وقورا يرتدي عباءة مطرزة بالذهب. يبدو الغضب واضحا على قسمات الشيخ الذي يقول لهم أنهم

طلبوا حضوره عند الساعة العاشرة، وفي العاشرة طلبوا منه أن يأتي في الساعة الواحدة.، وهاهي الواحدة والنصف. وهاهم يلقونه عند المدخل ليطلبوا منه المجيء في الثلاثاء القادم. رغم أنه يسكن مكانا بعيدا عن المدينة. وهو شيخ عشيرة مهمة ومعروفة في البلد . ليس من اللائق التصرف بهذا الشكل مع رجل من وزنه. ليس مدهشا والحالة هذي أن تقوم العشائر بأعمال عدائية ضد المحتلين. لا يجيد هذا الشيخ الانكليزية بالطبع، ويبدو مثل شخصية تنكرية لكثرة خيوط الذهب على عباءته ولسعة دشداشته، بل يبدو عليه ضائعا نوعا ما . الجندي الذي له ملامح الفتيات، يتفحصه، فهذا الشيخ الوقور بعمر جده ولكنه لا يعامله باحترام خاص، وهو يجهل أن هذا الشيخ يمكنه أن يجنّد عشرة آلاف رجل بين ليلة وضحاها .

58

هي الآن في عتمة مختبر التصوير الخضراء، ترتدي قفازا أبيض مثل الساحر واللصوص القديمة. تنحني على آنية السائل الكاشف للصورة حيث تتضح صورة طاولة في مطعم على ضفة نهر في يوم مشمس. هو جالس في مقدمة الصورة وأمامه كرسي فارغ، كرسيها هي التي كانت تلتقط الصورة، وكشاهد هنالك العدسة المكبرة على الطاولة. خلف كرسييهما هنالك أربعة كراس يشغلها السائق وثلاثة من رجال الحماية مقطبوا الجبين بسبب من أشعة الشمس الحادة. سعيدة هي الآن لحصولها على هذا التضاد اللوني وعلى كثافة اللون الأسود. ورق التصوير البلغاري الذي اقتناه آرام من هنا أفضل من ذلك الذي جاءت به. في خلفية الصورة يمكن ملاحظة مركبين لصيادين. إنها صورة لغداء، كانا وحدهما ولكن في هذا البلد لا يمكنهما الخروج لوحدهما أبدا، «لوحدهما» يعني وجود شخصين على الأقل أو أربعة أشخاص كما في ذلك اليوم.

وفي هذه الأثناء يطرق الباب بقوة رغم اللافتة المكتوبة بالعربية وبالانكليزية المعلقة على الباب: «ممنوع الدخول»، خوفا من أن يدخل أحد بشكل مفاجئ ويفسد عملها إذا تسرب الضوء الطبيعي للمختبر.

على شاشة البي بي سي تتوالى مشاهد رهيبة مثيرة للرثاء لشحاذ ترمش عيناه مثل حيوان ليلي أعشاه ضوء المصباح: الدكتاتور السابق الذي كان يخشاه الجميع أخرجوه من حفرته حيث كان مختبئا. يدان بقفازات من

المطاط تفحص شعره الأشعث، تبحث فيه عن القمل والطفيليات، وهو ما يُذكرّ على الفور بمشهد وساخة الجسد. ثم يفتحون فمه لأخذ عينة من الحامض الجسدي والشحاذ يطيع، مذهولا، رامش العينين. تأتي للذاكرة رائحة الفم الكريهة ورائحة الأسنان المعطوبة. في فترة ثواني معدودة، سحقت وإلى الأبد الصورة المبنية بعناية خلال سنوات طويلة من خلال الرسوم التشخيصية، والدعاية، والأكاذيب، والرعب، حتى أن آخر أنصاره وصفها بالمكيدة وبالتضليل وأن هذا الشخص الذليل ليس هو إنما شبيهه. سمعوا إطلاق صليات فرح طيلة النهار. لا يمكنها الآن أن تصعد إلى السطح لإجراء اتصال هاتفي فقد تذكرت عندما جاء خبر مقتل نجليه، كيف سقط على الأقل أربعة وثلاثون قتيلا في المدينة بسبب الرصاص الطائش، ذلك أن الجميع أخذوا يطلقون النار في الهواء.

ومثلما في الحكايات، توقف مفعول السحر. القصور والذهب والأحجار الكريمة، والعربة والخدم بثيابهم المطرزة، تلاشوا. والبائس الصغير الذي كان يبيع السيكاير في شوارع تكريت يجد نفسه في حفرة في تكريت نفسها، بملامح شحاذ.

59

غادروا بشكل مبكر. ما زال الوقت ليلا، والبرودة لاذعة، درجات قليلة فوق درجة الصفر. شكلوا موكبا من ثلاث سيارات، سيارتان مصفحتان تحيطان بسيارتهما الشخصية التي يقودها السائق ويرافقه أحد رجال الحماية المقربة، لا يُسمح لهما بالصعود فيها ذلك أنها ليست مصفحة. السائق ورجال الحماية وجوههم ملفوفة بكوفية حمراء. لقد حملوا معهم كمية كافية من الوقود، تكفي للرحلة كلها، ذلك أن البلد يشكو من نفاذ الوقود. منذ أسابيع صار طابور الواقفين أمام محطات البنزين جزءا من المشاهد المألوفة وقد يزيد طوله على الكيلومتر. (يمكن شراء البنزين من بائعين واقفين قرب محطات البنزين، يحاولون لفت الانتباه بصفائحهم، ولكن ما مقدرا الثقة بهذا البنزين؟ السائقون الذين أصبحوا بحكم الظروف مثل فرسان تذوق النبيذ، تعلموا أن يتذوقوه للتأكد من جودته!).

من حين لآخر يتوقفون لملء الخزان. تستغل محطات الوقوف هذه لتخطو بضعة خطوات في الريح التي تثقب معطفها. رجالهم يتناوبون للحراسة وهذه المرة يبرزون أسلحتهم، ذلك أن الكمائن منتشرة على طول هذا الطريق. حتى هذه اللحظة تبين أن القائمين على هذه الاعمال هم قطاع الطرق الكبيرة وبعض القبائل المحلية التي تنهب أموال المسافرين ولكنها تمتنع من قطع رقابهم. ذلك هو ما كانوا يتصورونه عندما قررا القيام بهذه الرحلة (ولكنهم أخطأوا الظن).

عندما وصلوا الحدود السورية، وجدوا المركز الحدودي فارغا. الموظفون اندهشوا لرؤية هؤلاء الزوار الذين صاروا نادرين.

اجتازا الحدود إلى الجانب السوري. وتركا حمايتهم في الجهة العراقية. رأوا في مرآة السيارة الجانبية كتلة رجال الحماية وهي تبتعد وأشكالهم وهي تصغر. وهاهما الآن وحدهما على الطريق الفارغ.، جالسان في المقاعد الأمامية من هذه السيارة التي اشتراها هو قبل عدة أشهر من شخص ترك البلاد، ولم يحظوا بقيادتها من قبل، لأنهما محكومان باستعمال السيارات المصفحة. يمضيان الآن، وحيدان، حران، على الطريق بين الحدود. ريح رملية تهرول على الطريق، وفي وسط الطريق يجدان بندقية كلاشنكوف، ألقاها أحدهم بعد أن ترك العراق ولم يعد بحاجة لها.

عادا بعد اسبوعين ووجدا رجال الحماية بانتظارهم عند الحدود. تركا سيارتهما الشخصية للسائق وركبا السيارة المصفحة، رائحة بخار البنزين تأتيهما من الخلف. قلبها يؤلمها قليلا والنعاس يغالبها، تأتيها نثار من أحلام متقطعة. ثم توقظها رجة العجلة عند موقف محطة بنزين، الأرض مليئة بمستنقعات قزحية، وحضور رائحة البنزين طاغٍ، الشاحنات مزينة بريش قبعة مثل خيول الاستعراض، وكل شيء كان مخضبا بالبترول حتى الأرض.

اجتازوا موكب حاملات الوقود الطويل، الملوثة ببقع الوقود البنية الزيتية اللامعة. هنالك أكثر من مئة شاحنة تسير في وقت واحد بثلاثة صفوف. السائق نجح بأخلاء الطريق باستعمال المنبه مرات عديدة، إذ ينبغي الابتعاد عن هذه القنابل السائرة التي غالبا ما تكون هدفا لهجوم، رغم مصاحبة المصفحات الأميركية لها.

60

الجو غائم هذا اليوم حتى أنها أشعلت المصباح كي تكتب. ذكرها ذلك بالصباح الأوربي عندما يكون الجو باردا وحزينا، وفي المنزل الفارغ يطغي صوت ماكنة الغسيل الكابي.

من النافذة رأت أحد الحراس مكورّا، حتى أنها لم تتعرف عليه. كان متدثرا بلفاف والطاقية تغطي أذنيه. إنه يسعل. ترى البوابة المغلقة ذات الثلاثة أمتار، تعلوها الأسلاك الشائكة بشكل حلزوني. لمحت حاجز أكياس الرمل التي يقف خلفها الحارس الثاني كي يراقب الشارع، والبراميل المليئة بالرمل التي رصفت الواحد أمام الآخر لسدّ إمكانية المرور أمام المنزل، ذلك أن الهجمات الانتحارية بالسيارات المفخخة تضاعفت. طائرتا هليكوبتر تمران فوق المنزل وتحلقان بمستوى منخفض جدا.

رحلتهم إلى سوريا بدت لها مثل ذكرى بعيدة. بعد عودتهم بيوم، لقى اثنان من مواطنيها مصرعهم على ذات الطريق، عند واجهة مدينة الرمادي. توقفت السيارة التي تقلهم بسبب عطب. أطلقوا عليهم النار من خلال سيارة أخرى كانت تسير مسرعة.

هذه السنة بدأت بداية سيئة. لا شيء يدعو للتفاؤل. لا الحصيلة النهائية ولا التوقعات.

المنزل فارغ. المستخدمون يتمتعون بعطلتهم. هنالك رجل حماية قابع

في مكان ما. ومثل جميع رفاقه فهو كتوم. وقد نسيت هي حضوره. ولكنها تعرف إنه سيكون حاضرا في حالة حصول أي طارئ، مثله مثل ساحر يخرج من باطن الأرض.

تستغل خلو المنزل للتجول فيه، تنتقل من غرفة إلى أخرى وتقع عيناها دائما على البار، هذا البار الذي أذهل الجنود الأميركان الشباب. تفكر بالقناني المرصوفة فيه. هنالك كحول بألوان مختلفة: أصهب، أحمر، رماني، أصفر ذهبي، أصفر قاتم، أخضر... مثل لون مشروب الرهبان. إنها الساعة الثالثة بعد الظهر، الجو بارد ورطب، تفكر بتناول كأس من الكونياك، أو من الفودكا. ثم تغير رأيها وتذهب للبحث عن مصباحها وعلبة الضوء، تضع شريط فيلم «كوداكروم» في آلة التصوير وتصور لمدة ثلاث ساعات تحولات الضوء عبر قناني الكحول وانعكاسها في المرآة.

61

أخذت الأموال تتدفق في البلد وتضاعف عدد السيارات.

الكل يحاول أن يضفي نوعا من الأهمية على نفسه. يعمد البعض إلى غلق جانب من الشارع الذي يمر أمام بيته. الكثير من الشوارع أُغلقت بسدود، ببراميل الرمل، بقواطع اسمنتية، ويوما بعد يوم صارت السياقة عسيرة. للوصول إلى حيّ المنصور الذي ينبغي أن يذهبوا إليه، تطلب منهم ذلك أكثر من ساعة. وهي لا ترى في ذلك التأخير أمرا سيئا. فهي تستغل الفرصة لكي تنظر من النافذة إلى هذه المدينة التي لا تعرفها بشكل جيد والتي تراها بالأخص عبر شاشة التلفزيون. مرّوا بالطريق السريع، دائما هذه البقعة العالية من الطريق السريع. ترى للمرة الأولى في ضوء النهار سوق السيارات الكبير والذي لاحظته ليلا بسبب الانتشار الكثيف لمصابيح النيون الكبيرة التي تشكل شباكا مضيئة. ولكن هذا المشهد لم يعد يكتسب أهمية في ضوء النهار الحائل. الهواء ملّوث، الضياء حزين، له لون رمادي مصفرّ، رتيب، يعتم أكثر مما يضيء. توقفت سيارتهم في الازدحام. السائق يتأفف ورجال الحماية متأهبون. حولهم صف من السيارات المهتزة، المبعجّة، الصدئة، المهدمة، كما لو أنها ستتفكك على الطريق. سيارات تاكسي في حالة تعسة (سيارات التاكسي هنا لونها أبيض وأجنحتها برتقالية)، ولكن من حين لحين تمر سيارة ذات سعة اسطوانية كبيرة، جديدة تماما، وغالية جدا.

رأت الساحات المتروكة مليئة بالقاذورات. مزابل تدخن ببطء. مستنقعات كبيرة من الماء الأسود تطفو فيها أكياس البلاستيك. أبنية قبيحة بلون الطين، بعضها مدمر. وهنالك سوق الخرفان الصغيرة، حيث تكدست الحيوانات في أماكن صغيرة مسورة مساحتها لا تتعدى بضعة أمتار. اللطخات الوردية المشعة على صوفها هي اللمسة الحيّ الوحيدة.

62

دعوا للعشاء بضعة أشخاص يعملون في إطار منظمة إنسانية. قبل عشرين عاما من هذا اليوم، صادفت أسم أحد المدعوين، دون أن تتعرف عليه شخصيا. لقد استأجرت مرة غرفة في بناية تعود له في مدينة كثيرة الاختلاف عن هذه المدينة، على ضفاف بحيرة شهيرة، وهذا المساء فقط تعرفت عليه. وأعجبها شكله.

وبدلا من باقة الزهور أو علبة الشوكولاته، وضع عند وصوله بكتمان رزمة محزومة على طاولة الدخول، ذلك أن من المعيب المجيء بيدين فارغتين، وبالأخص حين يكون الفرد مدعوا للعشاء. جاء بابتسامة وكأنه يقول: ليست هذه إلا هدية بسيطة.

بعد مغادرة الضيوف، التفتت إلى زوجها وسألته:

«حقا، ما هذه الرزمة التي جاء بها؟»

– «خمسة أكياس لتغليف الجثث».

63

سمعت هذا الصباح، في الساعة الثامنة، انفجارا جعلها ترتعد، ولكن المذياع لم يذكر شيئا عن ماهية هذا الانفجار. السائق يقول أنه ذاهب لورشة التصليح بشأن البطارية. تفتح التلفزيون وترى: انفجار في «الكرادة» يخلف أكثر من عشرين قتيلا وأكثر من مئة جريح. هذه المشاهد صارت مألوفة: هيكل سيارة محترقة، جدران مبقورة، أناس يركضون، جنود بخوذهم يمسكون البنادق، الكاميرا تتوقف بمراعاة عند بركة دم. كما لو أن مشهد الدم قد صار مشهدا عاديا...

64

فريدة جاءت هائجة: اعتدوا هذا الصباح على سائق التاكسي الذي يقل إبنتها وبعض التلامذة الآخرين إلى المدرسة كل يوم.

المعتدون أرهبوه بالسلاح، أجبروه على النزول من السيارة ولكنه كان نبيهاإذ نصح الأطفال بالهرب. الأطفال الأربعة تفرقوا في الشارع: (تصوري مدام، كوكو لوحدها في الشارع، نحن لا نسمح لها بالمشي خطوة واحدة لوحدها!). الصغيرة دخلت في أحدى المحلات لتطلب المساعدة، وقد جاءهم شخص لكي يعلمهم بالأمر، كانوا وقتها في البيت. لم تعرف ماذا حلّ بالسيارة ولا تدري ماذا جرى للسائق.

أضافت فريدة، بأن الشرطة عثرت على عبوات ناسفة كافية لتدمير حيّ بأكمله. وذلك على مبعدة خمسين متر من بيت أختها . موقف فريدة القديم الموالي للأميركان بدا وكأنه قد أخذ بالاهتزاز منذ بضعة شهور.

منذ أن وصلت إلى هذا البلد لم تسمع أحدا يلوم الأميركان على الحرب، بل بالعكس. كلا، إن ما يلومهم الناس بشأنه هو ارتكابهم للكثير من الأخطاء، وقد أفسدوا بهذه الأخطاء الفرصة التي خلقتها هذه الحرب، والأمل الذي ولدته.

هي التي كانت تفكر أن الحرب هي أسوا الحلول، وأنها بطبيعتها غير عادلة وكريهة، بل ينبغي تفاديها بجميع الوسائل، هل كانت قد أخطأت إذن؟

65

افتتحت «فرح» كاليريا في بيتهم القديم، وهو منزل جميل يطل على دجلة. فيما مضى كان الأطفال يسبحون في النهر، هي وأخوتها وأخواتها، ثم ساء كل شيء مثلما هو الحال في الكثير من أنحاء العالم. لم يعد يسمح لهم بالسباحة في النهر. وحول المنزل بنيت أكشاك من خلالها يرقب المخبرون تنقلات العائلة التي كانت السلطة تنظر إليها بارتياب.

النار كانت تشتعل في جميع الغرف التي تحوي على مدخنة. الجو بارد ومعتم في الطابق الأرضي كما لو كانوا في كوخ جبلي. تتذكر فرح طفولتها في هذا الطابق حيث كانت تطيب القيلولة في الأيام الحارة. كان المكان الأكثر برودة في المنزل. وفي الغرفة المجاورة كانوا يخزنون سجاد فصل الصيف. جدران الطابوق السميكة، تحتلها نوافذ ضيقة تطل على حديقة غير معتنى بها: وكأنها زاوية من الريف في قلب المدينة. كلب كبير، يحييهم بتكلف وآخر ينبح غاضبا وهو مربوط بسلسلة على مبعدة منهم. آلات صدئة كانت مركونة على الحائط.

66

اختطفوا «منير»، ذا السبعة عشر عاما.

جاء رجال مسلحون إلى المنزل وأخذوه عنوة. لم يكن هو المقصود بالاختطاف، إنما أخوه، الذي عاد مؤخرا من الخارج. من يقيم في الخارج يفترض أن يكون غنيا. ولكن ذلك لا يشغل الخاطفين، فمنير يؤدي الدور بغياب الآخر الذي لم يكن وقتها موجودا في البيت. وضعوا المسدس على صدغه وهددوا بقية العائلة. ثم مضوا. أحياناً يخرج ضحايا أعمال الخطف هذه أحياءا. إنها عمليات خطف نذلة، فالخاطفون ينشدون أموال العائلة، لا أرواح المختطفين.

استلمت أم منير عدة اتصالات تلفونية، فيها يخبرونها أنهم سيقطعون ابنها أوصالاً إن لم يدفعوا الفدية على وجه السرعة. لم تستطع كتمان الأمر عن زوجها، طريح الفراش، وقد وصل السرطان إلى مراحله النهائية في جسمه.

عاد المختطفون وأطلقوا النار على شباك الدار كي يرهبونهم. المفاوضات كانت تجري عبر الهاتف، ابتدأت بمئة ألف دولار وانتهت بعشرة آلاف. بعد عشرة أيام استطاعت العائلة أن تجمع المبلغ: الخال باع سيارته، الأخ العائد من الخارج أعطى كل مدخراته، واستدانوا البقية من جار غني. أُطلق سراح «منير». كانوا قد ضربوه بشدة في البدء، ثم تركوه بإهمال. كان يتشكى من عينيه ذلك أنهم أبقوه معصوب العينيين طيلة فترة احتجازه.

والده توفي في اليوم التالي لعودته.

تعددت حالات خطف الأولاد حتى صارت شائعة. «فريدة» قررت عدم إرسال بناتها إلى المدرسة. في الحي الذي تسكنه، هنالك أربع عوائل أُختطف أبناؤها أو «اختفوا».

67

المواد التفجيرية الذي استطاعوا تفككيها قرب بيت شقيقة فريدة، كانت موجهة لنسف محطة التوليد الكهربائي في الدورة. إذا ما صادف وأنفجر العتاد فأنه سيؤدي إلى مجزرة بشرية وسيدمر المحطة. سيتطلب الأمر أكثر من سنة كاملة لإعادة صيانتها . وهي ذات المحطة التي كان النظام السابق يريد حمايتها عشية الحرب بإنشاء سور بشري حولها .

إنهم يقتلون المهندسين، يعطلون الإنشاءات. كل ما يمت بصلة لتوليد وتوزيع الكهرباء مستهدف بشكل منهجي بالتفجيرات.

عليها الآن أن تملأ المصباح النفطي.

68

رغبتهم بالذهاب لگاليري في باحة فندق فلسطين، هي حجة للدخول إلى المنطقة الخضراء المصغرّة. وهي المنطقة التي تبدأ بالمحيط المحمي لفندق فلسطين وعشتار (ميريديان وشيراتون، سابقا).

مشوا للحظات قبل أن يهتدوا للگاليري، الذي كان مغلقا. إنها الساعة السادسة تقريبا، وقد هبط الليل. واجهات هذه المنطقة لها شكل مريب، بحواجزها الاسمنتية العالية، بأسلاكها الشائكة وبالاضوية الساطعة التي تصبغ الأرض بلون أخضر. الأرضية فارغة إلا من كلاب تهيم بين الجذوع السوداء. الظلمة مهيمنة حتى أنها لا تعرف أين تضع قدميها. هنالك مستنقعات كبيرة في كل مكان، بسبب تجمع أمطار الأيام الماضية. في المدخل يخضعونهم للتفتيش. رجل الحماية المقربة التي يتبعها عن كثب، لا يطمئن لاختفائها في غرفة التفتيش النسوية.

رأت كتلة ظنتها عملا نحتيا، ولكنها كانت في الحقيقة، دبابة مغطاة بشبك تمويه، يبدو من بعيد وكأنه ثوب عرس يزيّن القماش ذا اللون الكاكي. هنالك دبابات أخرى تحرس المكان تشبه ضفدعا كبيرا أو سمكة حجرية، يمكن تخيل حركتها بصعوبة. عشية دخولهم لبغداد أطلقت دبابة أميركية قذيفة على فندق فلسطين. وهاهم الاميركان يحرسونه. في واجهة الفندق العلوية، ترى الثقب الذي سببته القديفة. يمكن من خلاله رؤية دواخل الفندق المضيئة.

في شيراتون، الذي سمي بعشتار، هنالك مصعد كهربائي مزجج يمكن من خلاله رؤية المدينة، تعلوها طبقة كثيفة من الغبار. ترى كابينة المصعد المضاءة وهي تصعد وتهبط على الجدار الأسود وكأنها هدف سهل لرماة محتملين. ذكرها ذلك بمشهد منصات الرمي في مدينة الألعاب حيث يتسلى الزبائن بإطلاق رصاص وهمي على البط البلاستيكي الذي يدور في قعر العربة، ليحصل الفائز على دمية من قماش.

التواليت مهدمة. وهنالك محل بيع مواد تذكارية يعرض ملابس داخلية للرجال، غلاف لمسدس أو ورق اللعب الشهير الذي يمثل فيه الرئيس السابق آس البستوني، ساعات يدوية، ساعات منبهة وقداحات تحمل صورته، وعلى بعض المواد هنالك أيضا صورته بوجهه الجديد وجه الشحاذ.

ليس هذا وقت السياحة. في مصعد الشيراتون يصادفون مشاهد غريبة مثل مشهد الجندية الهائلة بصدارها المانع للرصاص، والتي تحمل بندقية ثقيلة، طولها يجاوز أكثر الرجال الحاضرين طولا. إنها المرأة الوحيدة التي رأتها في الفندق. هنالك أيضا جنود مسلحون. صحفيون، مصورون يحملون حقائب كبيرة. أكثرهم يرتدي صدار واق للرصاص. رجال مريبون، رجال أعمال. ويبدو لها أن هؤلاء المدنيين يتصرفون بشيء من الهياج وبنوع من الأهمية المتخيلة وكأنهم فخورون لوجودهم في هذا البلد. هذا الشعور، أهو صدى لدواخلها؟

لم تتقبل هي يوما هذه الحقيقة المخزية: أن تكون الحرب مادة للإثارة. أما الحرب نفسها كمواجهة، كحرب، يسيل فيها الدم على جسدها وعلى أجساد الآخرين، فهي قضية أخرى.

٦٩

لم يوقظهم صوت الانفجار إنما الضجة الغريبة لرجال الحماية والتي وصلت إلى سمعها عبر جهاز اللاسلكي. سيارة طوارئ مموهة، ومليئة بالمتفجرات اصطدمت بفندق بالقرب من مكان عمل زوجها، مخلفة عددا من القتلى وعددا أكثر من الجرحى. بين الضحايا هنالك صديق قديم لأحد رجال حمايتهم الذي ذهب فورا لمكان التفجير. دخل غرفته، ووجد كل شيء مدمرا فيها. قتل صديقه بشظية «شرابنل»، جاءت مع نثار السيارة حسب ما توقع. لقد وصل هذا الصديق قبل فترة قصيرة وأقام في هذا الفندق لأيام معدودات بانتظار الموافقة على نقله للسكن في المنطقة الخضراء.

في مكتب زوجها تحطمت جميع النوافذ الزجاجية، مثلها مثل جميع نوافذ البيوت القريبة. وطوال اليوم ظل الناس يكنسون الزجاج. لم يصب أحد في المبنى بفضل الأوراق البلاستيكية الملصقة على النوافذ. أرسل زوجها السائق للبيت لكي يجلب بلوزات والسترات الرياضية وكل ما يجده من ملابس دافئة، ذلك أن الموظفين كانوا يرتجفون بردا في المكاتب المشرعة للهواء البارد. في الخارج كانت درجة الحرارة تشير إلى تسع درجات.

70

كل مساء حين يعود من عمله كان يعزف على آلة الچلو. أمسياتهم طليقة، لا أحد يدعو أحدا. هذا المساء جاءت مدام سفتلانا بصحبة يوسف ليشاركا زوجها العزف لمقطوعات موسيقى الغرفة. تنصت لهم. هذا الثلاثي يذكرها بالأيام التي قضتها في براغ. مدام سفيتلانا تتحدث مع زوجها باللغة التشيكية، وهي لا تفهم شيئا، ذلك أنها نسيت هذه اللغة ولكن هذا ليس مهما. إنها منتشية نوع ما، والجو طيب. يعاودون العزف، وهي تسمع موسيقى «دفورچاك». تشعر أنها في براغ وفي بغداد في الوقت نفسه. العنف تلاشى وأخذ يجري تحت جسور براغ. وهي تتمتع بهذا الاسم النحاسي، براغ، الذي ترددده على لسانها مثل قطعة حلوى.

71

عيد آخر يحلّ بموكبه المتوقع من التفجيرات.

الجميع كان ينتظر أيام العطلة هذه. المؤذن يوقظهم بشكل مبكر كل هذه الأيام. عندما يصمت، تصيخ السمع لوشوشة المنارات الأخرى، التي تتردد مثل أصوات الديوك التي تغني لمطلع الفجر. يذكرها هذا الإيقاع بصباحات الريف، وتجد في هذا الغناء شيئا حزينا ومؤثرا، ولكن لماذا؟

72

ذهبوا إلى سلمان باك عبر طرق ريفية أختارها رجال حمايتهم الذين ذهبوا في رحلة استطلاع قبل يومين. وهي طرق أكثر أمانا وأكثر جمالا من الطرق الكبيرة. عبروا غابات نخيل وبين أشجار النخيل، يبدو العشب كثير الاخضرار وهنالك أشجار برتقال مغطاة بالفاكهة. إنها تفضل النخيل هنا أكثر منه في مصر، فهي تجده أكثر امتلاءا، أقل طولا وأقل نحافة، أو ربما أخطأت الظن؟

في البدء توجهوا لرؤية البانوراما، أو ما تبقى منها. آثار كسرى ملك الفرس التي تبعث على الإعجاب، ماثلة في هذه المنطقة. لم يعبأ الرئيس السابق بمجد اعدائه التأريخيين الشاخص هذا، إنما عمد إلى بناء بانوراما قربها تشيد بمجد العرب.

يصف الكثيرون بناء هذه البانوراما بالجميل، ولكنه صار عرضة للنهب بعد الحرب مباشرة. في الداخل كانت الظلمة حالكة ولذلك فقد حملوا معهم مصابيح يدوية. لم يبق من البانوراما شيء. المصاعد الكهربائية هدمت. بلاط الأرضية اقتلع. كل شيء تكسر واحترق. الآن صار بامكانها أن تتخيل حجم النهب والعنف الذي اندلع في تلك الأيام.

لقد رأت من قبل آثارا بمثل هذه الفخامة ولكن الطاق الذي يزيد ارتفاعه على الثلاثين مترا والذي مازال واقفا في مكانه، هو أثر يثير الاعجاب.

هنالك بقايا سيارة بالقرب من الطاق.

أخذت تلتقط صورا لجذع شجرة ميتة.

هنالك سلم يؤدي إلى السطح، يتيح للزائر رؤية المناطق المحيطة وتأمل القوس عن قرب. بعض الشبان الجريئين يتسلقونه. هنالك الكثير من الشباب في كل مكان فهو يوم عيد. هؤلاء الشبان يبدون مرحين، لا شيء فيهم يثير الذعر، أهنالك من بينهم من شارك بنهب وتدمير البانوراما؟

سياح إيرانيون وصلوا في لحظة مغادرتهم. يمكن التعرف عليهم من خلال حجاب النساء.

أمس ذبح السنة خرفانهم واليوم جاء دور الشيعة، هنالك خرفان في كل مكان.

الجو بارد بسبب إعصار ليلة أمس، أكثر برودة من ذلك اليوم الذي ذهبوا فيه لرؤية آثار بابل، ومثلما في بابل، هنالك مستنقعات سوداء عديدة تمنح القرى البائسة شكلا تعسا. طاق كسرى وحده يمتلك نوعا من النعومة، ولكن السائق الذي زار المكان عدة مرات من قبل يشكو من الإهمال الذي لحق بالحدائق المحيطة بالطاق.

في طريق العودة تلتفت ثانية باتجاه القوس. بين الطاق وبين الطريق، تمتد الأرياف الهادئة بأشجارها ذات الأوراق الناعمة، التي تهبط مثل شجر الصفصاف.

بحثوا عن مكان آمن للاستراحة، واختاروا في النهاية فيلا مدمرة تقع قرب مستنقع. مازالت الأرجوحة منتصبة في الحديقة حيث جلسوا ليأكلوا السندويجات ويراقبوا عوم زوج من البط. يمكن ملاحظة بلاط غرفة الحمام وورق الجدران على الحيطان المهدمة في الفيلا. الأعمدة التي تسند

السقف ما زالت واقفة. يصعد أحد رجال الحماية هناك ليدخن سيكارته وأخذ يراقب المناطق المحيطة. كان يرتدي كوفية عربية وسلاحه (أ-47) بيده. تلتقط له صورا دون أن يشعر بها. شكله شكل محارب يرتسم على صفحة السماء البيضاء يشكل تراجيدي.

73

استيقظت في الساعة الخامسة. المولدة الكهربائية ظلت تشتغل طيلة الليل: لأسباب أمنية ينبغي الإبقاء على المصابيح والبروجيكترات مضاءة. ينبغي اطفائها حين يحل ضوء النهار وهاهو الصمت يطبق على المنزل. في غرفتهم ما زالت العتمة مخيمة. تسمع وشوشة جهاز اللاسلكي الذي يعلن نفاذ بطاريته. لم يعد بإمكانها معاودة النوم.

74

الجو بارد في البيت، ولكن الشمس مشعة. تفتح النافذة وهو أمر لا يمكن ممارسته بسهولة، هنا. ولكنها نافذة لا تستطيع الإطلال منها بسبب الشِباك المعدني الذي وضع أمامها مثلما هو الحال مع جميع نوافذ البيت. الهواء له رائحة الربيع.

هذه الأشياء التي فقد الفرد التعود عليها: مثل الكتابة أمام نافذة مفتوحة، وهو فعل تجد فيه وقاحة لذيذة.

75

أحد رجال حمايتهم ترك العمل عندهم وعاد إلى مهنته السابقة: ربان مركب للصيد. وهي مهنة تليق به تماما، بلحيته نصف الشائبة التي تشبه لحية قبطان، بحاجبيه الكثيفين وبالاحتراس الذي كان يبديه دائما، احتراس بحار بالتأكيد. تتخيله على ظهر مركبه، لابسا سترة بلاستيكية لامعة، يعطي أوامره لملاحيه.

يبدو أنه التقى بامرأة، وإن هذا هو السبب الأساسي الذي جعله يتخلى عن خدمتهم. لاحظت بشكل مؤثر كيف احمرّ وجه هذا البحار القديم عندما قال لهم بأنه سيتزوج قريبا.

76

كانت تقرأ عندما رأت فجأة أن الصفحة التي تقرأها قد أصبحت برتقالية: نهار بلون فاكهة المشمش يدخل من النافذة. في الخارج تهتّز النخلات بريح برتقالية، حادة. تركن كتابها وتأخذ آلة التصوير وتصعد إلى السطح دون أن تخبر أحدا.

تستغل وجود رجال الحماية في المشتمل الذي يجاور الحديقة وليس في الغرفة التي تفضي إلى السطوح. تعبر الغرفة القديمة بستائرها المسدولة دائما. تأخذ المفاتيح المعلقة قرب الباب. يمكنها الآن أن تمارس هذا الفعل ثانية: أن تفتح بابا.

تصعد سريعا قبل أن تغيب هذه الظاهرة الغريبة. تتسلق السلالم. رأت المدينة غارقة في ضبابة من اللون الأصفر البرتقالي، حتى لم يعد بإمكانها أن تميز بدقة قبة الجامع المجاورة. الغبار يتراكم على فواصل قير السقف. تلتقط صورا للنخيل المحاذي للجسر، والذي تهزه الريح في الضباب البرتقالي الذي تضيئه الشمس الطالعة. تلتقط صورا للسطوح التي تبدو أضاءتها حائلة لأنها تدير ظهرها للشمس.

تغطي البلاط الآن طبقة خفيفة من الغبار الأصفر.

77

لم تسنح لها الفرصة لزيارة قصر المؤتمرات في «المنطقة الخضراء» من قبل. منذ زيارتها الأخيرة للمنطقة الخضراء، وجدت إن الحواجز الكونكريتية قد تزايدت، إن التفتيش ازداد دقة، وإن هنالك المزيد من الأسلحة والمزيد من الأسلاك الشائكة. ولكنها لاحظت أنهم اكتفوا بتدقيق ملامحهم وما إذا كانت ملامحها تتطابق مع الصورة. وكالعادة، لم يسألوها عن بطاقة هويتها. قبل أن يُسمح لهم بالدخول إلى موقف سيارات قصر المؤتمرات، مرر جندي مرآة تحت سيارتهم دون قناعة تامة. يعيش في المنطقة الخضراء حوالي خمسة آلاف عراقي فكيف يمكن تفتيشهم كلهم؟

الحفلة الموسيقية ليست موفقة. كريم وصفي هو عازف چلو رائع ولكن الآلات النحاسية كارثية. الموسيقيون في أغلبيتهم كانوا يعملون في جوقة البواقين العسكرية، وأغلبهم من سكان مدينة الصدر وليس بمستطاعهم التدرب على آلاتهم هناك. حتى صار الفرد يخشى اللحظة التي يواصلون العزف فيها. ذلك أنهم يرتكبون أخطاءا حادة. ألآلات النحاسية عندما تُعزف بشكل خاطيء تثير الضحك لا محالة. مدام سفيتلانا عزفت «كونشيرتو الإمبراطور». إنها لا تمتلك بالتأكيد مدى العازف المنفرد، ولكنها عازفة بيانو جيدة وهي الوحيدة التي تقبلت فكرة العزف دون مقابل مادي وهذا وحده جدير بالإطراء.

قبالتها تماما جلس عسكري برأس حليق. في يافوخه ثمة أثر لجرح أفقي طويل، ملتئم. أذنه مجعدة، وقد عانت هي الأخرى بالتأكيد من أثر الضربة نفسها. إنها مهنة غريبة رغم كل شيء.

ليس هنالك الكثير من الحضور: إنها حفلة موسيقية يتطلب حضورها الحصول على دعوة. والصالة الكبيرة شبه فارغة. المرافقون هم رجال بملابس عسكرية مرقطة، مسلحون بشكل كامل، يرتدون أحذية موحلة، وهم الذين يقومون بدور المرشدين للجلوس، أنهم مرافقون من نوع عجائبي.

يلفت نظرها حضور العديد من النساء، لا مجندات إنما مدنيات. الوجوه مطلية بالمساحيق والشعر مصفوف، هيأتهن تشي بذلك الطراز من الناس الذين اعتادوا ارتياد صالات العرض الموسيقي. الكثير من النسوة يعملن في «المنطقة الخضراء». النساء الحاضرات هذا المساء لسن ربات بيت، إنما جئن بصحبة زملاءهن. وهذا ما يخلق، في الفترة الزمنية التي تدوم فيها الحفلة، وهم مجتمع مدني طبيعي.

78

شيئا فشيئا تحلّ الأيام الربيعية. تشرب شايها، جالسة تحت الشمس على حافة المسبح الفارغ. في قاعه يركد قليل من الماء المتسخ المغطى بخليط من الأوراق والأغصان. رجل الحماية في أعلى الدار ينظر إليها وهي تحدق بالقطط. وهي تعرف أن فريدة خلف شباك المطبخ تنظر إليها. يمكن مدّ خيوط وهمية طويلة تربط نظراتهم.

79

إنهما المدنيان الوحيدان في هذا المعسكر الضاج بالجنود المسلحين، بثيابهم المرقطة.

بين الأبنية الخشبية التي تضم محلات الهدايا التذكارية والحلاقة، هنالك بركة كبيرة هي بقية مطر الأيام الثلاثة الماضية. شعرت كما لو كانت داخل ديكور للسينما تصور فيه مشاهد فيلم عن معسكر أميركي. للحصول على سندويج سجق أو شيء من هذا القبيل، وقفا في الصف أمام (بغداد سناك) وهو مطعم للأكلات الخفيفة.

رأت امرأة سوداء برتبة عالية، توبخ صفا كاملا من الجنود الذين تعلو قاماتهم قامتها بكثير. عنبر واسع يضم المخازن التي يتسوق منه الجنود. في المدخل هنالك لافتة تأمر بإلقاء السلاح قبل الدخول، وهو ما يفعله الداخلون بطواعية، يضعون أسلحتهم في سلال موضوعة لهذا الغرض.

في الداخل يمكن شراء منتوجات أميركية، بيرة، نبيذ بلا كحول، مواد للحلاقة وللتطبيب السريع، مناقل، كراسي من القماش، لحوم مجمدة، اسطوانات، كاسيتات، مجلات أميركية، بطاقات بريد ساخرة، وطنية، عاطفية لا تختلف بتعبيرها عن تلك التي كان يرسلها الفرنسيون في الحرب العالمية الأولى إلى خطيباتهم قبل قرن من الزمن. هنالك الكثير من النساء

أكثرهن بلا أناقة، مؤخرة الكثيرات منهن كبيرة وصدورهن ترتج تحت ملابسهن المرقطة.

هي، بملابسها المدنية، تبدو متفردة، تشعر بالغرابة، ولكن لا أحد ينظر إليها، ولا أحد يحفل بوجودهما. يتنقلان في المعسكر كما لو كانا غير مرئيين.

٥٥

طريق المطار لم ينعم بالأمان منذ أن وصلت قبل ستة أشهر.

بسبب الخوف من الكمائن، قطعوا الأشجار على جانبي الطريق وفي الجزرة الوسطية. رجل الحماية المقربة الذي يقود السيارة ظل محتفظا برشاشه على فخذه. السيارتان تتابعان على مقربة وبسرعة شديدة، كما لو كانت تطاردهما سيارة أخرى. وعلى الطريق تسير بقية السيارات بمجاميع، بذات الطريقة. عليهم تجاوز رتلا عسكريا لا ينتهي كان قد احتل مساحة كبيرة من الطريق. السيارات تغير صفها وسيارتيهما تتأرجحان بينها بسرعة مئة وثلاثين كيلومترا في الساعة.

عندما وصلت قبل ستة أشهر، كان المسافرون يمرون بالعنابر، والآن أخذوا يستخدمون تجهيزات المطار الدولي.، لكن الشعور السائد هو أنه مطار لا يشبه بقية المطارات. ساحة وقوف السيارات كبيرة وفارغة، ليس فيها سوى صفّ من سيارات ليموزين بيضاء جديدة، لا تحمل أرقاما. أمام البناء المركزي كل شيء يبدو مهجورا، بلا حركة. والعشب نما بين بلاط الرصيف.

سيدة أميركية شقراء، شعرها قصير، وملابسها مدنية، تلهو مع كلبها الكبير على طول الرصيف الفارغ. ترمي له بكرة، والكلب يركض يقبض عليها ويجلبها لها. السيدة تضحك بقوة، صدى ضحكها تردده الجدران.

إنها لوحدها مع هذا الكلب. تدخله في سيارة ضخمة من نوع كرويزر تحمل أرقاما أميركية مسجلة في تكساس وقبل أن تسدّ باب الكرويزر، تقبله بكل مظاهر الحب العارم، التفاخري، كما لو كانت لوحدها في العالم مع هذا الكلب، وكأن لا شيء له وجود خارجهما.

ألقت نظرة إلى داخل المطار، ذلك أن الدخول ممنوع إلا للمسافرين الذين يمتلكون تذكرة طيران. بضعة أشخاص ينتظرون، جالسين، وحدهم في الصالة الفارغة الذي تزين سقفها رواسب كلسية تذكر بألف ليلة وليلة وبمتحف الشمع الباريسي كريفان في آن واحد. رجال أمن واقفون هنا وهناك أو يقومون بنوبة حراسة، الكلاشنكوف في اليد.

في الخارج، على المدرج، هنالك بضعة طائرات تعود للشركة الوطنية، واقفة منذ فترة الحصار. تلاحظ إن أحد الطائرات كانت بلا محرك.

81

حلقة علاقاتهم تضيق أكثر فأكثر، لا أحد يزور الآخر. الكثيرون تركوا البلد وبعضهم يتأهب لمغادرته. يمتنعان من الذهاب للمطعم. التلفون لا يشتغل والنقال الذي بدأ يظهر، أصبح متقلب الهوى. الازدحام يحيل المسافات إلى عذاب. التفجيرات بواسطة السيارات المفخخة أصبحت روتينية، كل شيء بدا معلقّا بالانتظار.

تختلي يوما فيوما في مختبر التصوير الأخضر الإضاءة. في عمق الإناء، على ورق التصوير يتكشف مشهد شجرة ميتة ترتسم على صفحة السماء الرمادية، نصب ضخم مثل كاتدرائية في مناظر مرقطة بأشجار تشبه أشجار الصفصاف، قوس كبير تتنقل عليه أشكال مصغرة، وهنالك أيضا صورة الرجل المسلح بكلاشنكوف، واقف على سطح منزل مدمر(يدخن ويبدو غارقا بتفكيره، نظراته تحلق في المدى).

لقد احتفظت بعناية بكل هذه التفاصيل: وجوه رجال، نظرات نساء، قطع من مناظر، أجزاء من نصب، مقتطفات من أشياء عدة. مثل فتاة صغيرة مطيعة تداري نفسها بنفسها في يوم ممطر يصاحبها المقص والصمغ، تصنع لوحة يمكن عبرها قراءة حيز من حياتها. شظايا الحكايات، حطام أماكن، شخوص غير مكتملين، اجتمعوا بالصدفة أو بشكل مقصود، وتراودها فكرة أن هذه الأجزاء الملصوقة تشبه إلى حدٍّ كبير عملية تحرير رواية.

٥٢

منذ الصباح تُسمع أصوات إطلاق النار القريبة. لا تعير ذلك اهتماما أبدا. كما لو أن هنالك درجة سمعية تنتفي من دونها الإثارة. وهذا الصباح ليس هنالك من شيء خاص يميز هذه الطلقات التي تجعل من دمها فوارا. المذياع صامت، ما تبقى من هوائيته مرفوع مثل سبابة. إنها جالسة على السلالم الزرقاء داخل المسبح. تنظر للماء يجري وتراقب مسيره البطيء في قاع المسبح، يمشي من بلاطة إلى أخرى، بضجة نافورة هادئة، لكي يطرد آثار الشتاء.

83

التجـأت لحديقتـهم قطـة دهـستها سـيارة. الحـراس اعتنـوا بهـذه المخلوقـة المسكينة الـتي تـشبه كـرة مـن الـشعر الوسـخ. أسـكنوها في الكـوخ، قـرب المـدفأة وأعطوهـا مـاءا بـشكل متواصـل، ولكنـها كانـت تـرفض المـاء والطعام. ثم تـوارت خلـف سـياج الأغـصان، ربمـا لكـي تتهيأ للمـوت. ولكنـها عادت بعد يومين لكوخ الحراس. وهـي تفضل أن يقوموا هم برعايتها . هؤلاء الرجال الذين أمضوا سنوات طويلة في الحرب، يتفانون من أجل إنقـاذ قطـة جريحة.

ولكنها اختفت ثانية منذ ليلة أمس.

84

أعلن الحداد الرسمي لمدة ثلاثة أيام. عيد «عاشوراء»، أمس كان داميا. الحصيلة كانت تزداد ثقلا. مع حلول المساء أصبح تعداد الموتى مئة وثلاثة وأربعون قتيلا بين كربلاء وبغداد، وعدد الجرحى كان يفوقها، كم مات من بين هؤلاء الجرحى منذ ذلك الحين؟

ستة انفجارات في كربلاء حدثت وسط الجموع، وانفجارات مشابهة في الساعة نفسها في بغداد، في الحي الشيعي، الكاظمية. التلفزيون ينقل على طول اليوم المشاهد نفسها معادة. الكاميرا تتوقف بمراعاة عند الأعضاء البشرية المبتورة، عند جريح يجرّ نفسه داخل بركة من الدماء. أناس يركضون، جمجمة يطلع منها الدخان. وذلك المشهد الذي يعلق عليه صحافي غربي، عصبي، محزوم بصدار مانع للرصاص: صورة شارع تملأه الجموع، جموع تحيي عاشوراء، وفجأة يرتج ذات الشارع بكرة هائلة من النار.

إنها الآن في الحديقة. الجو رمادي وحار، العصافير تغني بأعلى صوتها. هذا الجو يذكرها بفصل الامتحانات عندما كانت طالبة، في نهاية الربيع العاصف، الهواء يتموج بالرغبات المرهقة. وهي، شابة، ترتعش بالإحساس الداخلي الساحر الذي يشي بمستقبل واعد.

أيام غريبة أيام العطلة التي ترافق هذا العيد الشيعي، أيام دامية

وهي هادئة بشكل يدعو للعار، في هذه الحديقة. أطبقت الحرارة على البلد بشكل مفاجئ. هذه هي المرة الأولى من السنة التي تسبح فيها، وهي موزعة بين السعادة وبين العار. وهي تبحث عن الظل، عن برودة المنزل المريحة التي تلتجيء إليها، وأن تلامس أقدامها العارية برودة مرمر السلالم.

القطة التي لا تعير القنابل اهتماما، تلعب الآن مع الحشرات التي لم يتسنى لهم رؤيتها من قبل، حشرات كبيرة مثل بنصر اليد، مريعة المرأى. حشرات غريبة تتسلق بسرعة ولكنها لحسن الحظ لا تستطيع الطيران. وسرعان ما تلتهما القطة بتلذذ.

85

تتذوق للمرة الأولى الشوربة التقليدية التي يحتسونها في عاشوراء. كان قد جلبها أحد الحراس في علبة بلاستيكية.

أنه حساء ثخين مصنوع من الحبوب التي تخلط معها قطع الدجاج، يمكن تناوله حلوا أو مالحا. بسبب وجود قطع الدجاج، تفضل هي تناوله مملحا وتجده لذيذا. في عاشوراء يطهى هذا الحساء في مراجل كبيرة في زوايا كل شارع. وهي بالطبع لم ترها بعينها، فهي لا تخرج من المنزل إلا نادرا. أحيانا تبقى في المنزل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع دون أن تتجاوز عتبة بوابة البيت، ولكنها تعرف أن هذا الحساء يطهى في قدور كبيرة عندما شاهدت على شاشة التلفزيون مشهد الذعر الذي تلا تفجيرات كربلاء. لقد لمحت في خلفية المشهد، مرجلا كبيرا، صامدا، وهو العنصر الوحيد الذي ظل واقفا بين الحشد المذعور الراكض.

86

القطـة الجريحـة عـادت ثانيـة. رجـال الحمايـة واقفـون بـشكل دائـري حـول هـذا الكـائن المـسكين. والقطـة مكـورة علـى سـاقها المكسورة، تعـضها بعنـف. تطلـق مـواءا أليمـا. أجفانهـا مـشدودة، وهـي متـسخة، مـدماة، بائـسة وليس هنالك أمل بشفائها.

أمام هذا المشهد الأليم، ينـزعون لتخليصها من هذه الآلام. قبـل ذلـك علـيهم أن يأخـذوا مـشورة الحارسـين اللـذين رعاهـا، أعطوهـا الطعـام والشراب وأشعلوا من أجلها المدفأة.

ردة فعلهم كانـت عنيفـة. وقـد شـعرت هـي بالـدموع وقـد تجمعـت في عيني أحد الحـراس، ذلـك الحـارس الـذي أمـضى سـبع سـنوات علـى الجبهـة الإيرانيـة. الحـارس الـذي قـال لهـا ذات يـوم بأنـه مـوال بـشكل تـام لعقوبـة الإعدام.

ولكنهم لم يقتلوا قطة في حياتهم، ولـيس مـن صـلاحياتهم انتـزاع روح قطـة، ينبغـي أن يتركـوا هـذه المهمـة للـرب الـذي أعطاهـا الحيـاة. القطـط مقدسـة، وللقطـة سـبع أرواح كمـا يعـرف الكـل. سـتحلّ النقمـة علـى قتلـة القطط، ومن «يقتل قطة عليه أن يبني كنيسة».

87

استقبلوا لبضعة أيام عازف بيانو مشهور جاء بكرم وبعزيمة إلى هنا رغم كل شيء ليعزف مع الأوركسترا الوطنية. في النهار تسمعه يعزف في صالة الاستقبال. الأبواب مقفلة، وهي لا تتجرأ على الذهاب إلى هناك لتصيخ السمع، بكتمان، ذلك إنها تريد له أن يتمرن كما لو كان لوحده. سيكون هذا المنزل بيته لأيام عدة.

ولكنه سقط مريضا عشية الحفلة الموسيقية. مريض إلى الحدّ الذي لم يستطع فيه النهوض. التمرينات المرتقبة أُلغيت. مرضه يزداد سوءا، إلى أي طبيب سيأخذونه؟ الأطباء مستهدفون هذه الأيام بشكل منهجي. الكثير منهم قتلوا والأكثر غادروا البلد، هل بقي أطباء جيدون في البلد؟

ليس هنالك سوى المستشفى، ولكنه في المستشفى سيكون طريح الفراش ولن يكون بمقدوره العزف في اليوم التالي في قصر المؤتمرات. يتبادلون النظرات بخشية وبذهول، مع هذه الفكرة المريعة، وماذا إذا قضى نحبه؟

غير أن رجال الحماية، الذين يجيدون كل شيء، يتلبسون دورالممرضين. يحضرون له العلاج، يزورونه كل ساعة. شيئا فشيئا يتعافى المريض. مازال واهنا ولم يذق كثيرا طعم النوم. يتعاقبون على رعايته ويزورونه في الليل كالممرضات. في اليوم التالي، ينهض في منتصف النهار وتسمعه يعزف في الصالون.

تعرف أنه لم يتناول شيئا منذ يومين، وإنه ضعيف ويعاني ولكنه ذهب إلى قصر المؤتمرات، مساءا. تراه يجيب مبتسما على أسئلة الصحفيين.

يعزف الكونشيرتو بالدو مينر لموزارت والصالة صامتة تماما. الحضور كثيف هذا المساء، والصالة شبه ممتلئة وهذا يشكل في حد ذاته نجاحا إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الظروف والخوف الذي يجبر الناس على البقاء في البيوت في الليل بدلا من الذهاب إلى قصر المؤتمرات في «المنطقة الخضراء». ظل الحضور يصفقون طويلا. عندما ذهب للجلوس منهكا، شجعت سيدة محجبة، ابنتها لتحمل له باقة زهور، وبينما الصغيرة الخجلة تقدم له الباقة، تشكره أمها وهي تقول منذ زمن طويل لم يأت عازف منفرد بسبب الحرب والحصار.

عازف البيانو تيمون آلتفيج هو أول من غامر بالمجيء لبغداد.

ذهبوا لشراء هدية لزميل عمل سيغادر البلد قريبا. في حي «الكرادة»، الذي لا يبعد كثيرا عن بيتهم، هنالك شارع تجاري توجد فيه بعض محلات الانتيكات حيث تباع المواد النحاسية، والسجاد وما شابه ذلك.

ذهبوا بسيارتين مع أربعة من رجال الحماية وسائق. توقفوا أمام باحة فيها محلات الأنتيكات، مثل سوق صغير، أُعيد بناؤه في هذا الجزء الحديث من المدينة. خرجوا من السيارة وهم محاطون برجال الحماية، مشوا سريعا حتى مدخل أول المحلات ودلفوا، كما يدخل الفرد في أي مكان طارئ حين يفاجئه مطرٌ قوي. لا يمكنهم الذهاب لدكان آخر. وينبغي أن يعثروا في هذا الدكان على ضالتهم. أحد رجال الحماية بقي في المدخل وآخر قرب السيارة والثالث بالقرب منهم، بينما السائق يساعدهم في التعامل مع صاحب المحل من أجل شراء سجادة شرقية (كيليم) وهم في رواح ومجيء بين طابقي المحل.

دفعا ثمن السجادة وغلفوها، وخرجا بعد أن أعطاهم الحرس الإشارة. محاطان برجال الحماية، مشوا سريعا حتى السيارة ودلفوا فيها كما لو أن المطر قد توقف. «أوف» أية مغامرة؟

أحد أصدقاءهم وهو صحفي غربي، يرتاد مدينة الفلوجة بشكل مستمر. منذ سنة ونصف وهو يزور المدينة، حيث يعرفونه هناك جيدا وله عاداته في المدينة. كان يرتاد بشكل دائم مطعما حيث يباع حسب قوله أفضل كباب عراقي.

في هذا المطعم نفسه، جاءوا وأخذوه هو ومترجمه. الشيء الأول الذي فعلوه هو أنهم حطموا تلفونه النقال حتى يستحيل تعقب آثاره. ضربوا المترجم حتى أدموه. أخذوا كل ما كان يملك من نقود وآلات التصوير. قالوا له أن جميع الغربيين سيقتلون في الفلوجة، ليس في الفلوجة وحدها إنما في بغداد كلها حيث ستمتد عملياتهم. أراد صاحب المطعم التدخل وهو يسترحم المختطفين راكعا، قائلا أنه يعرف هذا الشخص منذ مدة طويلة وإنه رجل مسالم وطيب وهو في النهاية ضيفه. ولكن هنا لا ينفع أن تكون ضيفا لأي شخص كان، حتى الشيوخ، ذلك أن قيم الشرف العربية القديمة، لم تعد رائجة. ولأنه أراد الدفاع عن زبونه الغربي، ضربوه مثله مثل المترجم. ثم أعلنوا أنهم سيقتلونه وطلبوا من صاحب المحل أن يخرج الأطفال الموجودين من المطعم.

في البدء أخذوا يلهون معه. طلبوا منه أن يرفع يديه ويفرج أصابعه وأطلقوا النار بين الأصابع. ثم أعادوا ذات التمرين مع الساقين. طلبوا منه أن يفرج ساقيه وأخذوا يطلقون النار بين الساقين.

ثم أخبروه أنهم سيقتلونه بعشرين طلقة في أماكن متعددة من جسده، مبتدئين بقبضة اليد. وضعوا المسدس على راحة يده وأطلقوا النار. المسدس كان فارغا من العتاد.

اتصلوا بسفارة بلده ليتأكدوا من أنه من رعايا هذه الدولة كما قال وهددوا الموظفة التي كانت تجيبهم بأنهم سيأتون لقتلها، هي وجميع أفراد عائلتها إذا كذبت.

بعدها أدخلوه في صندوق سيارته وأغلقوا الصندوق وطلبوا منه أن يعدّ حتى المائة قبل أن يخرج، وبعكس ذلك سيقتلونه، وهذه المرة ليس هنالك مجال للهو.

٩٥

في الواحدة والنصف من كل يوم تتناول لوحدها غدائها الذي تُعدّه فريدة، في صالة الطعام الصغيرة التي تفضي إلى الحديقة. ثم تحمل قدح الشاي إلى المكان الذي تفضل فيه تناوله، وغالبا ما يكون مكتبها الذي تلتجئ إليه سريعا.

وهي الآن تتناول الطعام. نظراتها تسرح في الحديقة. الريح تصفق الستائر وتحرك القماشة التي وضعها البستاني على جزء من الحديقة ليقيها الشمس. تتصور الريح ذاتها في الصحراء، ترجّ خيام البدو، تُشعَّث صوف النعاج الأسود، تزوبع الغبار خلف الشاحنة التي تمر في البعيد، وهي ترتج على طريق ذاهب من لا مكان إلى لا مكان.، وتتخيل الفتيات الصغيرات بشعرهن المتشابك وبأثوابهن التي تلتصق بأجسادهن الضامرة.

وفي خضم هذا التخيل، يطلّ قادم من الباب ضيف أليف وهو يعرج. وقد بقيت عنده أذن واحدة. عيناه مفتوحتان. يموء طالبا حصته من الطعام. ليس هذا فقط، إنما جاء لكي يعاتبهم عما أرادوا فعله ذات يوم، أن يواروه التراب، أو هكذا كان يخيل إليها؟ جروحه وردية حادة ولكنها ملتئمة، إنه أقل وساخة وشهيته عارمة. رائحته سيئة وهو مصاب بالجرب.

تعطي لفريدة النقود لكي تأخذه هذه المرة للطبيب البيطري.

91

في مساء سابق، خرج آرام وفريدة وابنتهما. أرادوا أن يشتروا لها المثلجات، «الموطة» حسب تعبيرهما. ينبغي التنزه مع الأطفال من حين لحين رغم كل شيء. ولكنهم لم يجدوا الفرصة لتناول «الموطة»، فقد حدث تبادل إطلاق النيران بين الأميركان ومجموعة من الشبان. وما الذي يمكن عمله في مثل هذه الأحوال غير الركض سريعا والالتجاء لمكان آمن.

92

جاء يوسف عازف الچلو لبيتهم بشكل مفاجئ. أطلعهم على الرسالة التي استلمها حديثا وفيها يزفون له موعد موته القريب. لقد أخذوا عليه مشاركته في تنظيم حفلة موسيقية ودعوته لعازف غربي. سيقتلونه لهذا السبب، فحياته التعيسة لا تستحق غير ذلك، كما كتبوا له.

ترك بيته حتى يوفّ لعائلته عناء هذه المخاطر. وهو يحاول الآن أن يتخفى. ينام في بيت أصدقائه ومبيته لا يتعدى الليلة الواحدة في المكان نفسه. يقترحون عليه المبيت في بيتهم كأحد الملاجئ الذي يلوذ بها. يشكرهم على اقتراحهم ويقول إنه لا يريد أن يسبب لهم المشاكل.

القتل يزداد. سائقهم فقد ثلاثة من أصدقائه. ثلاثة من أصدقاء الحي القدامى. قتل طبيب عيون مشهور وزميله الذي يجاوره أضطر للسفر بعد أن استلم تهديدا بالموت. قتل نواب، وزراء، مدراء، مثقفون، أطباء، فنانون، رجال أعمال. اختطاف الصبيان تواصل بحلة جديدة هذه المرة، هو أن يأخذوا الفدية ويقتلوا الصبي حتى يزيلوا كل أثر الشهود.

يوسف يحمل الرسالة معه في كل مكان. وهي ثقيلة ثقل سرطان تنوء به امرأة خارجة لتوها من عيادة الطبيب والذي ينبئها بأن حربا سرية وخطرة بينها وبين المرض قد أُعلنت.

93

أيقظها انفجار في الساعة الثامنة صباحا. لم تتبين ما إذا كان تفجيرا حقيقيا أم أنه جزء من حلمها.

في الحلم وجدت نفسها في مطار بغداد في مطعم كبير مليء بالاميركان، وبالمدنيين الذين ينتظرون طائرة لا تجيء، أو إنها انفجرت أو في طريقها للانفجار. في الخارج كان هنالك الضباب، يخبرونها أنه ضباب ناتج عن التفجير. من بين طيات هذا الضباب تهبط طائرة بعد أن قامت بعدة حركات بهلوانية. طائرة صغيرة تظن أنها طائرتها. في المطعم يقدمون أطباقا من السجق مع البطاطس المسحوقة وفي طبق آخر شرائح من لحم البقر المدمى. كانت تريد تناول السجق حين دوّى الانفجار وأيقظها (بعدها بحين سمعت من خلال المذياع، أن سيارة مفخخة انفجرت في تلك اللحظات ولكنها لم تخلف ضحايا).

تحلم الحلم ذاته، دائما. في المرة السابقة حلمت أنها بصحبة مجاميع من الناس الذين لا تعرفهم. تطل معهم من شرفة عالية، حيث يرون بنايات كاملة وقد تحولت إلى كرات من النار. هذا الحريق الهائل، يبلغ البنايات المجاورة، النار تتقدم وتتجه بشكل أكيد للمكان الذي تقف فيه، نحو تلك الشرفة حيث ترى موتها يتقدم. في الحلم أيضا يلازمها الخوف.

94

تشاهد مقاطع من برنامج تلفزيوني عن الدكتاتور المخلوع. تراه شابا، يلقي خطابا، يلقي بنظرات صارمة باتجاه مستمعيه. هذه المشاهد تتقاطع مع مشاهد أخرى لإعدامات جماعية في أرض جرداء. معدتها تتقلص لمشهد اللحظات الأخيرة لهؤلاء المساكين المرعوبين. عيونهم معصوبة، وشفاههم تتحرك، هل يصرخون أم يصلّون؟ يبدو لها فجأة أن عادة عصب العيون لا تدل على الرأفة بشيء إنما وجدت فقط لتريح ضمير الشخص الذي يضغط على الزناد. هكذا يمكن إطلاق النار على كائن بلا نظرات، وكأنه جثة. أليس هذا هو شكل المقاومة الأخير، الكرامة التي لا يمكن اختزالها، أن ترى ذلك الذي سيقتلك وجها لوجه؟ حيث لا يمكن له التهرب مما يقوم به؟ وكيف يتصرف المعدوم في هذه اللحظات الأخيرة، أو ما يمكن تسميته اللحظات الأخيرة؟ هل يصرخ، هل يتوسل، هل يصيح، هل يبكي، هل يتبول خوفا، هل ينادي أمه؟ هل يشلّه الخوف؟ أم أنه سينشطر، وينظر لنفسه بتجرد، هو تجرد الخوف أيضا. ينظر باهتمام لذلك الكائن الذي لم يعد جزءا منه والذي سيهوى بعد لحظات؟

أما فيما يخص السلاح الذي يدعونه بالأبيض. هل هنالك للكرامة من حيز، حين يحس الإنسان بالسكين على رقبته، عندما يُذبح، عندما يغدو مثل دابة تقّطر دما. والقتلة يعرفون ذلك، ولذلك تتزايد وتصبح رائجة، عملية ذبح الأجانب.

95

هذا الصباح أيقظها مرة أخرى انفجار قوي. مثل صوت رعد عندما تسقط الصاعقة في مكان قريب. خيل لها سماع طقطقة المطر في نعاسها. أخبار المذياع تنبئها أن سيارة مفخخة انفجرت وخلّفت أثني عشر قتيلا والعديد من الجرحى. القنوات التلفزيونية بثّت ذات المشاهد المألوفة: حطام سيارة محترقة، دخان أسود، برك الدم ومجاميع غاضبة أكثرهم من الرجال. حصل انفجار آخر في الساعة الثامنة ولكنه كان بعيدا هذه المرة.

مثل كل صباح ذهبت لتسبح. من المسبح سمعت ضجة حركات الدبابات حول مجاميع البيوت والأزيز المتواصل لطائرات الهليكوبتر غير المرئية التي تعطيها انطباعا غريبا إنها تسبح تحت أسطول من الطائرات الحربية.

سرب حمام يحوم أمام قرص الشمس، ترى ظلالها ترفرف على الحائط.

96

أحد سواق التاكسي سرد هذه الحكاية: قبل أيام، صعد في سيارته رجل بدا غريبا للوهلة الأولى. كان يتكلم ونفسه ويردد دون توقف: «يا محمد سأجيء للعشاء معك هذا المساء».

طلب منه المضي في مشوار طويل، من شارع لشارع ومن حيّ لآخر، وكأنه يجهل المكان الذي يقصد. كان يقول له: «اذهب بهذا الاتجاه...، كلا من هنا، انتظر، استمر...» وقد دام ذلك طويلا، حتى فقد السائق صبره: «هل يمكن أن تقول لي إلى أي مكان تريد الذهاب؟». في تلك اللحظة فتح زبونه أزرار سترته ليريه حزاما ناسفا. أسرّ له إنه يبحث عن مكان يستطيع فيه أن يقتل أكبر عدد ممكن من الناس. السائق المذعور رجاه النزول فورا. هبط الرجل مقطبا، وسترته تخفي الحزام الناسف بعد أن أبدى امتعاضه قائلا: «لقد استقل سيارات عديدة قبل هذه السيارة ولكنه اختاره هو بالذات، ذلك أنه لم يرَ في السواق الآخرين من يستحق أن يتقاسم معه سعادة أن يكون شهيدا».

97

وصل آرام وفريدة يعلوهما الإنهاك. لم يستطيعا النوم في الليالي الثلاث الأخيرة: ليس هنالك من كهرباء، وهذا يعني أن التبريد كان عاطلا. وهنالك البعوض وضجيج طائرات الهليكوبتر... وفي الطريق صادفوا ثلاثة تفجيرات (من بينها ذلك الذي استهدف في السابعة والنصف البنك المركزي). المذياع يعلن أن رمانة استهدفت سيارة وزير الصحة، الذي خرج سالما بفضل سيارته المصفحة... (رجال حمايتهم يخشون بشكل خاص الرمانات التي تباع في كل مكان، بنفس سعر الكعكة في دكان الحلويات).

في الليلة الماضية حدث تفجيران في الساعة السابعة مساءا. رجال الحماية شرحوا لها أن هذه القنابل تطلق شظايا اسمها «شرابنل»، تنطلق بسرعة تفوق عشرين مرة سرعة الصوت. الفرد المتواجد قرب مكان انفجارها، سيموت قبل أن يسمع صوت الانفجار. ذلك ما يبدو لها من وجهة نظر أخرى أقل وطأة.

تفكر بالأشخاص الذين صنعوا هذه القنابل. لقد كرسوا ذكاءهم ومعرفتهم ودراستهم لخدمة الموت والدمار. وتفكر أيضا بالعلاقة الغامضة التي تربط البشر بالأسلحة: إنهم يكرهونها، يخشونها، ولكي يحتموا بها فإنهم يقتنوها، ويعجبون بها ويشعرون بالأمان لامتلاكها. هذه هي أسس التصعيد العسكري. أن تقبل مثل أمر واقع، مثل شيء شرعي، فكرة القتل.

وفي الحقيقة يبدو ذلك أمرا طبيعيا. يشرح لها رجال الحماية الأمر. بعد إلقاء الرمانة الأولى ينبغي قتل الرجل بسرعة خاطفة قبل أن يلقي بالرمانات الأخرى التي بحوزته. وهذه الجملة «ينبغي قتله»، تبدو لها عقلانية، حصيفة، وفطنة وتتساءل، إذا ما امتلكت سلاحا، هل ستتصرف بذات الطريقة؟

98

قطتهم حائلة مرة أخرى. هذا المساء تغازل هرا أبيض وأصهب بأذنين مكسورين، هر جميل، يعرج قليلا. له بقع وردية باهتة في الأماكن الخالية من الشعر. وهو قط يرونه دائما بصحبة الحراس وبالأخص الأخوين الأرمينيين. القط يحرس معهم، جاثما على أكياس الرمل، يراقب الشارع كما لو كان يعاونهم ويظهر قدرته على الاستكشاف. لم يعد حيوانا متوحشا، إنه يبحث عن صحبة الناس ويستمتع بمداعبة الجميع.

99

نومها صار متقطعا. في الساعة الخامسة استيقظت على صوت انفجار قوي، هزّ شبابيك الدار. قلبها أخذ يدق كما لو كانت تجري، ما هذا؟

طوال اليوم تنصت للمذياع، تسأل الحراس، تسأل آرام، ولكن لا أحد منهم يعرف شيئا.

100

استيقظوا هذا الصباح في بلد حرّ، ذلك أن الاحتلال انتهى بشكل رسمي ليلة أمس. هنالك الكثير مما يمكن اغتنامه ومما يمكن خسارته في مثل هذه الحال. الحاكم الأميركي رحل إلى بلاده، لن ترى بعد ذلك حذائيه الثقيلين غير اللائقين بالمرة، والتي كانت تصاحبهما بدلة أنيقة.

بهذه المناسبة فتحوا أحدى قناني الشمبانيا المتبقية لديهم.

101

أصبح من المتعذر عليهم الخروج في وقت آخر، حتى أنهم زاروا حديقة الحيوانات في عز الظهيرة. الجو حار جدا. رجال الحماية الغلاظ، يخرجون ببسالة ورؤوسهم مكشوفة. بعد نصف ساعة يضطرون لاعتمار القبعة المضحكة التي عثرت عليها في قعر الجارور...

بعد الحرب وعمليات النهب التي تلتها، لم يتبق من الحيوانات التي كان يزيد تعدادها المئات، غير أربعة عشر حيوانا. لم يتجرأ أحد على سرقة الأسود التي تبدو لطيفة وطيبة المعشر.

قبل أيام مات نمر. جاء لزيارته جنديان أميركيان. تسلق أحدهما الشباك العازل ودخل في القفص وعندما هاجمه النمر وأخذ ينهش ذراعه، راح الجندي الآخر المذعور يطلق النار عليه من مسدسه.

هنالك فهدان يتيحان للزوار مداعبتهما. لهما هيئة قطين كبيرين كسولين. وهما أكثر وداعة وأقل شراسة من الكثير من القطط. وربما كانا أكثر كياسة من سيدهما السابق، أحد نجلي الرئيس المخلوع. ولكن الشك يساورها حين يبدأ أحد الفهدين بقضم كمّها وإن بشكل وديع. وماذا هناك أيضا؟ تراقب زوجا من البجعات يتناولان الطعام. وتزور الكلاب الضجرة المستلقية في قفص كبير تنتظر مجيء أصحابها الذين غادروا فيما يبدو بإجازة بعيدا عن بغداد.

102

شرابنل!

لا تعرف أين عثروا عليه. يتبادلون الضحك. لقد وجدوه في الحديقة دون شك، أو على السطح. ثم يتبادلون الحديث عن شيء أخرى وتنسى أن تسألهم المكان الذي عثروا على الشرابنل فيه.

إنها لمدهشة حقا هذه القطعة من الحديد الممزق، كثير الثقل، كسرة من قنبلة منفجرة، مسطحة بفعل قوة الانفجار، شائكة بأضلاع ذات حواف قاطعة. هذه القطعة تنتشر لمسافة مئات الأمتار عن موقع الانفجار. تحّوم بشكل لا يمكن توقعه، خلاف الرصاصة التي تمتلك على الأقل مسارا واضحا. ولذلك فهي تلتجيء لداخل المنزل حين تسمع صوت انفجارات بالقرب من المنزل.

103

يقع كامب فيكتوريا قرب المطار. في الطريق إليه هنالك الكثير من الزحام. شاحنات وسيارات عسكرية تثير غبارا أبيض في ديكور من الأحجار، من القواطع الكونكريتية، من الأشجار المقطوعة وأكوام الحديد وفوق كل ذلك هنالك الشمس الجهنمية.

الكامب واسع كمدينة. أبنيته الجاهزة مصفوفة على جانبي الشوارع كأنها كمدينة مؤقتة، لا ترحبّ بالزائرين. مدينة معدنية تحرقها الشمس؛ حتى أشجار النخيل القليلة لها منظر حجري لشدة اغبرارها. المكان الجميل الوحيد هو البحيرة الاصطناعية التي رأتها من نافذة الطائرة حين حطت في بغداد. للماء فيها لون أخضر مدهش. يمدهّ بالماء نهر صغير محاط بالقصب.

توقفوا عند شرفة بيت في ظل مظلة حيث امضوا وقتا للتطلع للأسماك المتقافزة. كان هذا المنزل فيما يبدو، مكان سكن مومسات الدكتاتور السابق. إنه مقفل الآن. ندف من الغبار تغطي الحيطان والعصافير بنت أعشاشها في المصابيح المكسورة. في جانب من الشرفة هنالك مغسلة جديدة، مثيرة للدهشة. الماء الذي يتدفق من الصنبور حارق لا يمكن وضع اليدين تحته. يحفل المكان بشيء مرضي، ولا تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير أن هذا البناء شيّدته نفس مريضة، وذلك ما بدا لها من الطائرة. عندما تحدق بالأخضر الباعث للريبة، تأتيها فكرة مريعة، احتمال وجود تماسيح اقتاتت طويلا على لحم الوزراء المغضوب عليهم، أو

أن ثمة سمّ في هذه المياه، أو حامض كيمياوي تذوب فيه بسرعة أجساد الخليلات المزعجات.

وصلوا مطعم الكامب، بعد أن عبروا عشرات المخابيء الجاهزة الصنع التي تنوء بشمس الظهيرة الشرسة. إنها قاعة كبيرة جدا، بطاولات مغطاة بقماش لامع. كل شيء لامع ومبرد. هنالك رواح ومجيء دائمين يعطي انطباعا بوجود حاشد. ترى عدة نساء. ولا تعرف سبب حضور مجندة صغيرة السن، ناعمة جدا بجديلة شعر كراقصة باليه، في مكان مثل هذا. إن حلية من اللؤلؤ تليق بها أكثر من هذا الرشاشة الثقيلة. من وقت لآخر تلاحظ ايطالياً أو بريطانياً، وبعض البولونيين. يمكن التعرف عليهم من الأعلام المنسوجة على بدلاتهم. الأطعمة كثيرة والطعام جيد، أو على الأقل أفضل مما كانت تتوقعه في مثل هذه الأماكن. ولكن ليس هنالك من إمكانية للحصول على قنينة ماء، ليس هنالك سوى المشروبات الغازية السكرية، وهو أمر غير معقول في جو مثل هذا. عند طاولتهم يسألها أحد الزبائن المدنيين من أي بلد هي ويقول لها وداعا بالفرنسية، حين يغادر. ما الذي يفعله في العراق؟

رجال حمايتهم جالسون عند مائدة طويلة، تراهم مصفوفين. عند الباب يأخذ الجنود سندويجا ومشروبات مبردة، إذ أن كل شيء هنا مجاني، لهم أيضا، ذلك أن الزوار قلة....

الشمس البيضاء تنتظرهم في الخارج، تعمي العيون. في الساحة أمام المطعم، هنالك نصب بسيط مزين ببطٍ من الجبس. لافتة تعلن عن أملها في أن ينعم البط العراقي بعراق حرٍ وديمقراطي. لماذا البط؟ أي طرفة وأي حادثة تكمن خلف هذا التكريم للبط المحلي؟ إنها بدون شك نكتة قديمة أصبحت شائعة، نكتة يعرفها الجميع، تفضح الغريب الطارئ الذي يجهلها، قصة تبدو غير مفهومة للآخرين.

104

يسبحون في الليل، في منتصف الليل، تحت ضوء القمر. يسمعون إطلاق مدفعية، منفرد. وما عدا ذلك يبدو كل شيء هادئا. باستطاعتهم البقاء طيلة الليل في الماء يراقبون سير ندفة صغيرة زرقاء من غيمة ضالة في السماء الحليبية.

عندما تستيقظ في الصباح، ترى الندفة وقد احتلت السماء كلها. الجو غائم، رمادي وساحر، وهو ليس حارا مثل الأيام السابقة، ولكن الهواء رطب وثقيل وهذا يذكرها بمدينة بالقاهرة....

105

يبدو أن الكثير من الأشياء قد تغيرت في القصر، واختفت الرؤوس الهائلة للدكتاتور والتي كانت تزين السطوح. وهي ترى في ذلك أمرا مؤسفا.

يتركون سيارتهم في الموقف الواسع الذي تصطف فيه مئات سيارات الكرويزر، البيضاء في أغلبها. يبادلون هوياتهم الشخصية بشارةٍ صدرية مخصصة للزوار، تمكنهم من الدخول إلى قصر الرئيس السابق، والذي أصبح مقر السفارة الأميركية. يعبرون المطعم حيث يأكل الجنود تحت سقف بعلو عشرين مترا محاط بالمرمر وبكتابات عربية تمجد الله وتحتها لافتات ملونة تمجد بالانكليزية الرب الآخر، ذلك الذي يرعى عملية «الحرية للعراق». في كل مكان تقريبا هنالك يافطات تحذر من عدم التجول غير المنضبط، أو تفادي الطواف الطويل حول الأبنية.

يمرون أمام صالات كبيرات. تلقي بنظرة من سلم لترى حيزا هائلا مقسم إلى مكاتب عديدة حيث يعمل أشخاص أمام الحاسوب، تحت سقف شاهق مثير للدهشة. تلاحظ غرفا بأثاث رخيص يجاور كنبة مذهبة، من بقايا بذخ النظام السابق. يسمون هذه الصالة بـ«المُصلى»، وهي مزينة بجدارية تمثل صواريخ موجهة للسماء مغلفة بالعلم العراقي. جدارية غريبة في مصلى أكثر غرابة فهو مقسم إلى صالات ضيقة كأعشاش، في كل واحدة منها حاسوب، ولا تمت للمصلى بصلة.

الرواح والمجيء دائم في الممرات الطويلة، الجنود ببدلاتهم العسكرية، رجال ونساء، وهنالك بعض الأشخاص بالملابس المدنية.. يلتقون بالكثير من رجال الحمايات المقربة. رجالهم يقفون دائما ليتبادلون بعض كلمات أو يصافحون البعض منهم وسط صيحات التعجب، عندما يصادفون هذا أو ذلك الشخص.

هنالك مسبح رأته قبل ذلك من الأعلى، من نافذة ممر في الطابق الأعلى: إنه مسبح كبير متعرج الشكل، بمغطس وبجزيرة صغيرة. على حوافه يجلس بعض السابحين تحت الشمس ينشدون اسمرار البشرة. أو يتمددون على الكراسي الطويلة مثلما في دعايات وكلاء السفر. أنهم أناس قادمون لتوهم بالتأكيد.

حول القصر، هنالك دائما تلك الأكواخ الجاهزة المؤقتة، والتي تشبه علب الكبريت. «عزة» أخبرتهم إن هذه الأكواخ تحتوي على غرفتين تفصلهما صالة استحمام مشتركة، أثاثها بدائي. أمام هذه الأكواخ تراكمت أكياس الرمل على بعضها بطبقات متعددة السمك. تشكل هذه الأكواخ في ظلال النخيل المحمل بالرطب، شكل شارع في قرية. وهو ما يذكرها بأطلال بابل، حيث حلّت الأكياس محل الطابوق، ولكن الفرق يكمن في أن هذه الأكواخ هي مؤقتة وستختفي قريبا.

في موقف السيارات وقبل أن يصعدوا السيارة، تمشي على كيس مليء بمعجون الطماطم. السائل الأحمر يتناثر على ثيابها والجميع يغرق بالضحك وهم يحدقون بهذه الجروح السينمائية.

106

سألهم سائقهم ما إذا كان بودهم زيارة مدرسة للشرطة القريبة، «أكاديمية الشرطة». ولم لا، كل شيء هنا يغريهم. يقوم بدورة ويقطع المسلك المواجه للطريق السريع الذي يستقله بالاتجاه المعاكس، وهو أمر شائع هنا.

إنه يوم الجمعة، يوم عطلة، ليس هنالك أحد تقريبا، ثم أنه خدر الساعات الحارة. ثلاثة من رجال الشرطة يحرسون المدخل بكسل. وفي مكان أبعد هنالك أميركان في دبابة. السائق يقول للحراس برباطة جأش إنهم جاءوا لرؤية خليل. وهو اسم لشخص خيالي ربما، وحتى لو وجد مثل هذا الشخص فإنه لن يعمل يوم الجمعة. ولكن هذا فيما يبدو كان كافيا لحراس المدخل للموافقة على زيارتهم. التفتيش يخلو من الجدية، وهو أقل ما يمكن أن يقال.

يخبرهم السائق أن الكثير من التجهيزات قد أزيلت وهو يتساءل بقلق، كيف يتدرب الرجال الآن؟

ورغم ذلك، هنالك رجال يتدربون على الحماية المقربة على الأرجح: يتدربون بشكل ثنائي، الأول يمسك الثاني بصرامة ويطرحه أرضا.

يدورون في الطرق المتعرجة. السائق يريد رؤية ما حلّ بساحة الرمي. خلف سياج من الكونكريت يمكن قراءة كلمات: «نعم، نعم، نعم» ولكن أسم

الدكتاتور السابق كان مختفيا تحت الطلاء. يمكن رؤية عوارض من الحديد مرقطة بالثقوب، خلف تل من الرمل. وهو ما يبدو لها مكانا مثاليا للتصفيات الجماعية. وعلى الجانب أتكومت عوارض من الحديد أيضا وكأنها أوراق مدعوكة ممزقة بفعل الرمي المستمر.

ثم يرحلون، تحييهم يد أحد رجال الشرطة الناعس قرب السياج.

107

تلتقط صورا للحراس. تصور رجال الحماية. تطلب منهم أحيانا أن يستبدلوا ملابسهم حين تجد أن ملابسهم الحالية غير ملائمة. يؤنسها الوقوف خلف آلة التصوير والتحكم بهؤلاء الرجال الفخورين بعضلاتهم، بقدرتهم على المقاومة، برجولتهم. وهم يبدون على قدر كبير من الطاعة والخجل غير البيّن، راغبون بإنجاز العمل على أحسن وجه.

إنها علاقة غريبة تلك التي تنشأ بين المصور وبين ما يصورّه. علاقات غريبة غبر مألوفة، فهي تتحرك وهم ساكنون، المؤنث والمذكر يتخذ صيغة أخرى. وهذا الرجل ذو الصوت الجهير والعضلات البارزة تحت الوشم، هل شعر بتبادل الأدوار هذه؟

108

نصب الشهيد لم يعد منطقة عسكرية. لافتة تعلن في المدخل، أن هذا المكان يعود الآن لوزارة الثقافة. الحرس الذي يستقبلهم في المدخل، يظل برفقتهم، سعيدا بنعمة هذه الزيارة. ربما كان ضجرا إلى حد كبير.

ينبغي السير بضعة مئات من الأمتار للوصول إلى قاعدة النصب. محارتان توأمان مغطيتان بالسيراميك الأزرق، تحميان النار(التي لم تعد مشتعلة) للجندي المجهول. وتحتها، على الحائط، يسارا ويمينا، هنالك قائمة لا تنتهي بأسماء الجنود القتلى خلال الحرب مع إيران.

هنالك تبادل مواقع ضوئية جميل، وتأسف لأنها لم تجلب معها حامل آلة التصوير. الحارس يصحبها إلى داخل النصب في فضاء فارغ، مغبر، متروك. الحراس الآخرون يتناولون طعامهم. هنالك شاب فخور ببندقيته الكلاشنكوف التي يجسها بمرح خطير أو هكذا بدا الأمر لها وهو الصبي الذي خدم عندهم في الاستقبال الأول الذي أعدوه يوم وصولها والذي أرتطم بشدة بزجاج الباب الذي يطل على الحديقة، الباب الذي نظفته فريدة بشكل مبالغ فيه. لقد وجد إذن مهنة جديدة، حراسة نصب الشهيد. لحيته غير حليقة، ومظهره يبدو معدما، كان مظهره أكثر فخرا بملابس المستخدمين، ولكن هذا الافتراض ليس له هوية محددة، أيهما الأفضل، مستخدم في مطعم أم حارس في وزارة الثقافة؟

داروا حول البصلة المنفلقة اللازوردية. ريح حارقة تهب على الأرض الترابية. النظرات تسوح في البعيد، عند المستنقعات التي تحيط بالنصب، عند أشكال البنايات والمصانع البعيدة... الأرضية المبلطة متكسرة وقد غزاها العشب. وهي تحب هذا النوع من الأماكن المهملة، المتروكة، الفارغة.

أحد رجال الحماية المقربة يتبعها على مسافة تقل عن المتر، قريبا منها دائما في الوقت الذي تلتقط هي صورا للمكان. تتوقع أن ينقض عليها في كل لحظة، أن يطرحها أرضا ويحيطها بجسده. هذا الرجل هو المكلف بحمايتها دائما. هل هو المكلف بحمايتها بشكل خاص؟ كيف يتبادلون أدوار الحماية؟

109

أخذوا يهاجمون محلات الحلاقة، ذلك أن اليقين الذي صار شائعا عند البعض هو إن المسلم الشريف لا ينبغي أن يزيل لحيته.

يطلقون النار على الصحون اللاقطة للقنوات التلفزيونية. يفجرون محلات بيع الاسطوانات، ذلك أن الموسيقى مخالفة للأخلاق العفيفة كما يبدو.

كل يوم يفجرون محلات بيع الخمور. وهي الآن في طريقها للانقراض. من لا يغلق دكانه في وضع كهذا؟ الشخص الذي يجهزهم بالكحول، أخذ يفرغ محتويات محله، القناني مرصوفة على الأرض تنتظر أن تودع في مكان آمن. الستارة الحديدية أُنزلت، ينبغي الانزلاق من باب نصف مفتوح في الجانب بعد لحظات من التوسل. سيغلق مخزنه لمدة شهر كامل، ثم يرى بعدها كيف ستتطور الأمور. يمكن بسهولة رؤية حزنه العميق. أي مستقبل هنا لهذا النوع من التجارة؟

بحرص أخذوا يملأون مخزنهم بالنبيذ، والبيرة والعرق.

116

دعوهم لحضور حفلة فولكلورية. يبدأ العرض في الساعة السادسة لأسباب أمنية وخلافا للعادة المتبعة في البلد. غير أن الكهرباء مقطوعة والمولدة الكهربائية لا تشتغل. وبدون الكهرباء ليس ثمة من عرض.

ينتظرون في الصالة المعتمة التي يضيئها النور القليل القادم من باب مفتوح على الجانب. يخمنون مجيء ورواح الناس ويرون أشباح الرجال المحملين بالكاميرات وبنادق الكلاشنكوف. إذا ما حصلت حادثة، أو أخذ أحد هؤلاء الرجال بإطلاق الرصاص في الظلمة، فما الذي سيحدث؟ طيف مصباح يدوي يتنقل خلف ستارة المسرح المسدلة. التبريد عاطل والحرارة خانقة. تشعر بالعرق يسيل على ظهرها.

يخرج هو مسرعا لأنه استلم نداءا هاتفيا على تلفونه النقال. لقد نسي أنهم في بغداد ولا يمكنه أن يترك المكان من دون حماية. أحد رجال الحماية المقربة يجلس خلفها تماما، ولا يمكنه أن يتركها ويتبعه، لا يمكن أن يقسم جسده إلى جسدين. يتصل باللاسلكي بأحد زملاءه ويطلب منه بسرعة أن يذهب لمراقبة الرقم واحد (هكذا كانوا يسمونه).

العطل ينذر بالدوام، والحرارة تزداد شدة. يخرجون على أمل العثور على شيء يُشرب. في المدخل هنالك رجال فقط، حتى أنهم لا يرون فتاة صغيرة بثوب أخضر تركض من مجموعة إلى مجموعة أخرى. وبالأخص

هنالك الكثير من رجال الحماية الذين يمكن التعرف عليهم من الصدرية السمراء ذات الجيوب المتعددة ومن سماعة الأذن ومن الأحذية الثقيلة التي يستعملها رواد الطرق الجبلية. واقفون، يراقبون عن بعد أو عن قرب شخوصهم أو يصعدون ويهبطون السلالم ليستكشفوا المكان، يدرسون المداخل ومعدات الأمن الذي هيئها المسرح. بعد ساعة من الانتظار، تعود الكهرباء، يمكن عندئذ للعرض أن يبدأ.

من مكانها، ترى، خلف خندق الاوركسترا، الأسمنت الخشن لنوع من الممرات تحت الأرضية، وعلى جانب من الكواليس هنالك فضاء مضاء بالنيون. طفلان ينطّان قرب شيء يشبه برميل قمامة، يشغلانها لفترة عما يحدث على المسرح حيث تُعرض في العمق منه ملابس ملونة مثبتة على شباك، توحي دون شك بالصناعات المحلية التقليدية، مثل تلك التي تعرض في مداخل الفنادق الكبيرة، للسياح. شرائط من القماش معلقة هنا وهناك تذكر بالأوراق الثخينة لأعياد رأس السنة في المدارس. بعض الراقصين لهم كروش. إنها ذات الوصلات الراقصة تقريبا، بالملابس ذاتها. مغني بربطة عنق يمسح جبهته بين كل وصلة من «يا لييييل» بينما مكبرات الصوت تطلق صفيرا مرعبا. الراقصة الأولى هي امرأة بسن الرشد، تجيد الرقص أكثر من الآخرين، اللذين يبدون خجلين، غير واثقين من أنفسهم. الرقص الشرقي يليق بها أكثر من رقص الباليه الكلاسيكي هذا. تنورتها القصيرة الفضية اللون، قصيرة أكثر مما ينبغي أو أطول مما ينبغي. لا يمكن عدم الالتفات لصدرها، لطولها، لضخامتها ولساقيها الغليظتين وهي في الوقت نفسه سيدة جميلة. على الراقص الذي يصاحبها أن يكون قويا ليرفعها والمسكين يفعل ذلك بصعوبة واضحة. ينضح من هذه الوصلة الكلاسيكية البريئة شيءٌ فاحش غريب. تصفق هي تصفيقا قويا.

رجال الحماية والمصورين كثر بشكل يدعو للضحك، حتى أنها

تتساءل ما إذا كانوا طلبة يحضرون درسا مسائيا، وهم لا يصفقون بالطبع. تصفيقهما المتواضع يختنق على الفور، تمتصه حفرة القاعة الفارغة الصامتة. هل هنالك من جمهور، غيرهما وغير الحضور الرسمي وعوائل الراقصين؟

111

الاثنين هو اليوم المخصص للنساء في النادي الأرميني، اليوم الوحيد الذي يمكنهن السباحة فيه. تعطي عطلة لفريدة لكي تصحب بناتها اللواتي أصبحن مجنونات بسبب بقاءهن حبيسات في المنزل المغلق.

في الأيام الخوالي، كان بمقدور النساء المجيء للسباحة في أي وقت، حتى مع الرجال فهو ناد عائلي. ولكن مدير النادي الذي أصابه الذعر من التهديدات والضغوط، فضلّ بحكمة أن ينصاع لما هو سائد في هذا الزمن.

فريدة تشكو من أن كل خروج من المنزل هو مخاطرة. عمتها وهي امرأة عجوز بشعر أبيض، تلقت على رأسها قنينة بيبسي كولا:

«عودي إلى منزلك وضعي الحجاب!».

كانت محظوظة فقد سكبوا على رأسها سائل البيبسي كولا، فالناس تقول أن رجالا مسلحين يجوبون الشوارع ويدلقون الحامض الكيمياوي على روؤس النساء السافرات.

قبل أيام قتلت ثلاث فتيات في وسط الكرادة، لأنهن يرتدين بنطلونات ضيقة وفانيلة، «ينبغي تلقينهن درسا»!

وفي كل مرة يخرجان فيها مع أطفالهما، آرام وفريدة يشهدون حوادث من كل نوع: إنذار لقنبلة، منغصات، انفجارات...

العوائل المسيحية التي بإمكانها مغادرة البلد، غادرت. ولكن أين سيذهبان هما؟ لقد فكروا بالذهاب إلى جمهورية أرمينيا ولكن الوضع هناك ليس جيدا، ما الذي سيفعلانه؟

112

هذا المساء دعوا أصدقاءهم أيضا...

بدا لها إنها أحست بعصف تفجيرات بعيدة: أربع سيارات مفخخة استهدفت الكنائس، خلال دقائق قليلة متعاقبة. الشوارع أُغلقت وأصدقاءهم الذين يسكنون في ذلك الحي لم يستطيعوا المجيء.

انفجرت السيارات في الوقت الذي خرج الناس فيه من الصلاة. آرام وفريدة كانوا من بينهم. وحدثوها أن طفل جارهم كان يصرخ طوال الليل ذلك أنهم كانوا يحاولون استخراج شظايا الزجاج المتطاير الذي أصاب ظهره.

«إنهم وحوش يا مدام، وحوش. إذا كان الأمر مناط بي ل.... لا يمكننا الخروج من البيت. أطفالنا أصبحوا مجانين لبقائهم سجيني المنزل، أي مستقبل ينتظرهم، أسألك، والآن لا يمكننا حتى الذهاب لتأدية الصلاة. وحوش. لحسن الحظ إنهم أعادوا العمل بعقوبة الإعدام!»

وهنا لم تستطع هي أن تقول شيئا.

113

الخطف والقتل ازدادا. أخذوا يختطفون الأجانب في بيوتهم، في وسط بغداد. تحاول أن تطمأن نفسها بالقول أن هؤلاء الناس لا يمتلكون حماية، أو إنهم أناس مثاليون مثل المجانين، فضلوا البقاء من غير سلاح. في هذا الزمن تترصد التعاسة بمن لا يمتلك حماية مقربة. البلد يبدو وكأنه ينحدر إلى الأسوأ، يقتلعه عنف يزداد شراسة، دوامة تضيق، وتتسارع، دوامة لا يمكن السيطرة عليها مثل الإعصار الذي يدمر مكان آخر من الكون في هذا الوقت نفسه، ولكن الإعصار أكثر إسراعا بالهدوء من البشر الغاضبين.

أربعة شبان أرادوا القيام بجولة في السيارة، لقد ضاقوا بالبقاء بين أربعة جدران. في طريق عودتهم وجدوا الشارع مسدودا. تحتم عليهم المرور بمنعطف، في جنوب بغداد. في هذا الطريق تجاوزتهم سيارة وأخذ أحد ركابها يطلق النار عليهم. لم ينج منهم غير شاب واحد، وهذه المرة الأولى التي يقتل فيها أحد من عائلتهم.

114

مضت عليها سنة منذ أن وصلت إلى بغداد. البستاني يأتي بشكل منتظم. يسقي الحديقة بإفراط. الماء يتدفق لساعات طويلة، وهو يتركه يسيل على العشب طيلة الليل، حتى أن القدم تغطس في الأرض المشبعة بالماء في الصباح. قطرات الماء اللامعة تعكس بين سيقان العشب الأخضر، بحيرات من الذهب والفضة المتألقة في ضوء الشمس: رؤيا الجنة التي تستحوذ على حلم الأعرابي لا تبدو مختلفة عن هذا المشهد. يقلمّ السياج النباتي والجَنَبة، ويخيل لها أحيانا إنه يحادث الزهور. ينحت أوراق الأغصان، متبعا حاسته الفنية، لكي يقترب شيئا فشيئا من الحديقة المثالية، وحتى لو لم توجد مثل تلك الحديقة، فقد صارت هذه الحديقة مثلها تقريبا في سنوات ما قبل الحرب، حتى أنها أصبحت أجمل حدائق الحيّ.

قبل يومين جاء أصغر أبناءه بقطعة معدنية لا تشبه شيئا محددا. ما هذه المادة؟

أبوه قال له إنها شظية، سقطت من السماء، ربما، ودعاه للتخلص منها لئلا تجرح يديه.

وهو يصطحب أولاده معه دائما. الأكبر يمرر ماكنة قطع العشب. الأصغر يلّم ما يمكن لمّه. ولكنه هو الذي يسقي الحديقة ويحول مكان

الأنبوب. يسعده اللهو مع الماء. لم يستطع أن يقبض على القطط الصغيرة، لأنها مفزوعة تهرب بسرعة خلف أشجار الداليا.

إنه يصطحب أولاده على الأخص لكي يتعلموا المهنة وهو ما قاله لها ذلك اليوم :

«على أية حال، ليس بإمكانهم الذهاب للمدرسة، في ظل ما يحدث هذه الأيام، ومن الأفضل أن يتعلموا الاهتمام بالنبات. علينا التفكير بالمستقبل، أليس كذلك يا مدام؟ ذلك أن البشر يتلاشون كما ترين، أما النبات فهو يستمر بالنمو، وهنالك حاجة دائمة لشخص يجيد العناية به».